عارف تامر

الغزالي

بين الفلسفة والدين



عارف تامر

الغزالي

بين الفلسفة والدين



RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

4, Sloane Street, London SW1X9LA

ALGHAZALI

by

AREF TAMER

First Published in Great Britain in 1987

4 Sloane Street, London SW1X 9LA

British Library Cataloguing in Publication Data
Tamer, Aref
Alghazali.
1. Ghazali, Abu Hamid Muhammed ibn Muhammed al- 2. Philosophers, Muslim —— Biography
I. Title
297'.5'0924 B753.G34
ISBN 1 - 869844 - 72 - 6

Photosetting by: Riad El-Rayyes Books Ltd., London

محتويات الكتاب

الإهداء

الى كل ثائر على الظلم والارهاب والحكم الفاسد
الى كل عـامل في سـبيل الحـرية والحيـاة الأفضـل.

« عارف »

هذا الكتاب

هذا الكتــاب كان يجب أن يرى النور في وقت مبكر ... اي في الفترة التي تضــاعف في خلالهــا الحديث عبر الكتب والمحاضرات والمقالات والاطروحات الجــامعيــة عن « الغزالي » كعالم ومفكر وفقيه ومتصوف واخيراً : كفيلسوف يتبوأ القمة ، ويسير في الصفوف الامامية بين الفلاسفة الاسلاميين .

وللحقيقــة ، فانــه لمن الصعوبة بمكان تعداد اسماء الدارسين والباحثين الذين اولوا الغــزالي اهتمــامهم وتقــديرهم سواء الأقدمين منهم او المحدثين - الذين كتبوا بالعربية او الأجنبية أو اللغات الأخرى - وقد يكون من المفيد التطرق الى بعضهم عبر انتاجهم ومقولاتهم ، والاشارة الى ذلك عرضاً أو سياقاً .

في دراستي القصيرة هذه عن الغزالي لا اجرؤ على القول بان ما كتبته هو كل ما يجب أن يقال عنه ، وانها الحقيقة الناصعة التي تقود الى الهدف الاسمى والغــايــة المثــلى ، او على الأقـل الى ما يرضي القــارىء ، ويحوز على اعجاب الباحث . ولكن ... ومهما يكن من أمر .. فلا بد لي من القول وأنا في موقفي هذا بأن خطتي في حيــاتي الادبيــة كانت ولمّا تزل كما هي دون أي تغيير ... انها الخــطة التي تقوم على مبدأ تدوين الافكار التي اؤمن بصوابها على صفحات الكتب ، وبعد شعوري بالقناعة وارتياح الضمير ، وبعد ذلك فلا اشغل بالي بما يصــدر من انتقــاد او لوم او تعريض ، كما لا اقيم وزناً لما يصدر عن دائرة الحاسدين والمتقولين .

ان ما جاء في هذا الكتاب عن الغزالي ربما يزيح الستار ولأول مرة عن اشياء كثيرة غير معروفة عن هذه الشخصية القلقة الخائفة والغامضة التي حامت حولها الظنون ، وعجزت عن ادراك كنهها وسبر اغوارها اقلام الدارسين والباحثين .

فعسى ان اكون قد قمت بما يفرضه عليّ الواجب من خدمة تاريخنا وتراثنا ... وعسى ان يمنحني القارىء الكريم العذر عن كل نقص أو تقصير .

ان الوصول الى الحقيقة يكلف جهداً مضنياً ، ويبدو عسيراً في عصر توارت

في طياته الاخلاق ، وماتت عبر ايامه الضمائر ، وفي فترة رديئة ضاع في خلالها الواقع المنشود في صحارى الازمنة ومجاهل العصور .

اجل .. ان الوصول ، او محاولة الوصول الى الكمال ضرب من الجنون ... فالكمال لله وحده ، والتاريخ المتجرد هو الذي يحكم ويقرر ، ويضع النقاط على الحروف ، ويفرِّق بين الحصى والجواهر .

عارف تامر

١

الغزالي

أمام المصادر التاريخية

عندما اتطرق الى ذكر المصادر التاريخية ، والبحوث والمقالات التي تناول كتّابها الغزالي بالحديث سواء القديمة او الحديثة ـ العربية او الاجنبية ـ أرى نفسي أمام واجب ادبي يدعوني الى الاشارة عرضاً الى الأهم منها دون توجيه اي نقد او بيان يتطرق الى الخطأ والصواب . لأن اعـطاء صورة مفصّلة عنها يبدو مستحيلاً في كتاب صغير مثل هذا ، خاصة وربما كان في ذلك خروجاً وبعداً عن الموضوع الذي نحن في صدده .

يبـدأ تاريخ الغزالي في كتاب « القواصم والعواصم » لأبي بكر بن العـربي تلميـذ الغـزالي ، وكمـا تعودنا ان نرى ونسمع ، فان جميع المؤرخين الذين جاءوا بعده اعتمدوا عليه ، وأخذوا عنه ، وخاصة « ابن عساكر » في تاريخ دمشق ، و « ابن الجوزي » في التنظيم ، و « ياقوت الحموي » في معجم البلدان ، و « سبط بن الجوزي » في مرآة الزمان ، و « ابن خلكان » في وفيات الاعيان ، و « الذهبي » في سير اعلام النبلاء وغيرهم من المؤرخين الاقدمين وهم اكثر من ان يتناولهم عد او حساب .

هذا بالنسبـة للاقـدمـين . امـا البـاحثـين المحـدثـين من العرب والمستشرقين فبالامكان التنويه بما كتبه كل من الأب فريد جبر ، ومحمد عبد الهادي ابو ريده في اطروحته باللغة الالمانية ، والدكتور عبد الرحمن بدوي ، وزكي مبارك ، وأحمد فريد الرفاعي ، وطه عبد الباقي سرور ، والدكتـور سليمـان دنيا ، وعمر فروخ وعبد الكريم عثمان في دراسته، النفس عنـد الغزالي ، وهناك دراسات واطروحات ومقالات ومحاضرات ظهرت عن الغزالي في اوقات مختلفة ناهيك عن المقدمات التي وضعت في الصفحـات الاولى من كتب الغـزالي المحققـة والمقالات التي دوّنت في الموسوعات ودوائر المعارف .

اجل ... وقد يكون من المفيد جداً أن نضيف الى كل ما ذكرناه ما كتبه بعض المستشرقـين عن الغزالي امثال : كرادي فو ، وبروكلمن ، وبول

كراوس ، وهـنـري كوربـان ، ولويس ماسـينيـون ، ونيكلسـون ، ولوكتسهير ، وبويج وغيرهم . واني عندما انوه بتقديري لآراء أربعة منهم هم : بروكلمن ، وكـراوس ، وكـوربان ، وماسينيون ، فأكون قد أدّيت بعض ما عليّ من واجبات .

هذا من جهـة ، ومن جهـة أخرى ، وما دمت في صدد تقديم هذه الدراسة عن الغزالي ، ارى انه لا بد لي من العودة الى التاريخ لاعطاء صورة واضحة عن العصر الذي عاش فيه الغزالي ، وما قبله وبعده ، مع بيان موجز عن الاوضاع السياسية السائدة وتقلباتها ، والحالة الفكرية المسيطرة على تلك المجتمعات والنوادي العلمية ... وكل هذا باعتقادي له ارتباط بحياة الغزالي الفكرية والتاريخية والادوار التي مثلها على مسرح الحيـاة ، والعـواصف والانـواء التي عصفت به ، وأذاقتـه الاتـراح والأفـراح ، والحلو والمـر ، فليس مثـل التـاريخ الصادق البريء ينير الجـوانب المـظلمـة ، ولا مثـل الادب الخـارج من الاعماق والمطبوع بالوجـدان ، والبعيد عن كل تعصب وأحقاد يقرّب الحقيقة الناصعة ، ويدني من الهدف الاسمى .

أحداث وأنباء

عندما نأخذ على عاتقنا تقديم دراسة موضوعية عن الغزالي ، اعتماداً على المصادر التاريخية التقليدية المعترف بها ، نجد انه من المفيد التوقف فجأة امام بعضها ، بعد ان خطر في ذهننا ان المؤرخين الذين دوَّنوها عاشوا في ظروف كانوا فيها خاضعين لسلطة فئة من الملوك والحكام ، فكان كل تاريخ لا يعبر عن افكارهم ومعتقداتهم لا يسمح له بالانتشار ، والوصول الى ايدي الناس ، وامام هذا الواقع يكون الاخذ بهذا التاريخ او التصديق بوقائعه يتنافى ومبدأ الباحث المنصف ، خاصة وقد ظهرت جلياً لبعضهم شطحات جامحة وآراء قلقة تخرج في مجموعها عن دائرة الحقيقة ويرفضها العقل ، وهذا ما يجعلنا نتجه الى دراسة تاريخ العصر الذي سبق الغـزالي بسنين عديدة معتمدين على المؤرخين الذين عرفوا بتجددهم وترفعهم عن الاهواء والغايات ، « وهم قلة » ... واني على يقين بأنهم سيساعدوننا على استخلاص بعض الحقائق ...

.. ومن جهة ثانية فقد تكون هناك بعض الفوائد في دراسة عصر ما قبل الغزالي ... لهذا فسندع الغزالي وأخباره هنيهة على ان نعود اليه بعد هذا العرض التاريخي الذي يلقي الاضواء على احداث تلك الفترة المشحونة بالاحداث والوقائع الرهيبة ، فلا يكفي كما اعتقد ان نقرأ التاريخ ، ونأخذ عنه مرددين اقواله كالببغاء ، بل علينا ان نفند الاقوال وننقدها وندلي برأينا بعد ذلك في كل ما قرأناه كما قلنا .

من الواضح .. انه منذ مطلع النصف الثاني للقرن الرابع للهجرة ، كان يحكم المنطقة الاسلامية « الشرق الأوسط اليوم » دولتان كبيرتان هما : العباسية في بغداد ، والفاطمية في القاهرة .. ومن القاء نظرة فاحصة دقيقة على الاوضاع السائدة في الدولتين في تلك الفترة .. نستخلص :

بأن العباسية كانت تعاني من مرض الشيخوخة الحاد ، ومن الفوضى والفساد . فالخليفة في قصره كان يحكم بالاسم ، بينما الحاكم الفعلي للدولة يتمثل بالقوى الاجنبية التي تسلّلت الى حرم الخلافة بعد ان رأت مناخاً جيداً وأرضاً صالحة ، وأعني بها « البويهية »(١) اولاً و « السلجوقية »(٢) ثانياً ، وكلتا القوتين سيطرتا على الحكم ، واختلستا صلاحيات الخليفة ، وجردتاه من كل شيء حتى اصبح حاله كما وصف نفسه :

« أليس من العجائب أن مثلي ... يرى ما كان ممتنعاً لديه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... ولكن ليس شيئاً في يديه »

ولم تكن حال الدولة الفاطمية بالتي توحي بالاطمئنان . فالفساد والفوضى خيّما في كل مكان ... والخليفة انفرد في قصره يصارع التيارات الهوجاء التي هبت في كل جهة تزرع الفساد والفوضى ، ورافقها ايضاً تسلل العناصر الاجنبية الى الحكم متمثلة بالقائد الارمني « بدر الجمالي »(٣) ... اما بقية الامارات والدويلات الاسلامية فنضرب صفحاً عن التحدث عنها مكتفين بهذا القدر .

مما لا ريب فيه ... ان العداء قديم بين العباسيين والفاطميين ، ولا ارى اية فائدة من العودة الى الموضوع والتفاصيل ، ولكن لا بد من القول : بأن المعارك الكبيرة ظلت قائمة على اشدها ومستعرة بين

الخلافتين والدولتين ، وقد نكون في دراستنا هذه مضطرين الى ذكر بعض الوقائع المهمة قبل ظهور الغزالي لأن ذلك يفتح أمامنا الابواب ، ويمهد السبل للوقوف على جوانب عديدة من حياة الغزالي ، فضلاً عن التسلل التاريخي ، وارتباط الوقائع بعضها ببعض . فالباحث في التاريخ تقع على عاتقه مسؤوليات كبرى اذا تخلى عن ربط الماضي بالحاضر ، او تغاضى عن الرجوع الى ما قبل الاحداث ، لأنه اذا لم يفعل ، فسيظل يدور في حلقة مفرغة ، دون ان يتمكن من الاهتداء الى السبيل المستقيم .

« حدث كاد يغيّر وجه التاريخ »

لا نستطيع هنا ... ونحن نكتب تاريخ هذه الفترة ، ان نتجاهل الحدث الرهيب الذي خطط له الفاطميون ، فتمكنوا من احداث انقلاب عسكري في العراق أطاح بالخلافة العباسية ، وحوّل بغداد الى مدينة تابعة لخليفة مصر الفاطمي ، وعلينا بعد استجابتنا أن نعرّج ولو هنيهة على رحاب علم من من اعلام الادب والعلم والخطابة والشعر ، وداهية من دهاة السياسة استطاع بمرونته ودهائه وتخطيطه وصبره أن يحدث انقلاباً عسكرياً في اكبر دولة عرفها التاريخ القديم .. ذلكم هو المؤيد في الدين « هبة الله بن ابي عمران بن داؤد » داعي دعاة الفاطميين في القرن الرابع للهجرة ، والذي ذاع خبره وعرف في تاريخ الادب العربي بمناظرته لابي العلاء المعري .

ولد هبة الله في شيراز سنة ٤١٠ هـ . والده كان حجة بلاد فارس بعهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ... هناك غموض يكتنف تاريخ نشأته وصباه ، وكل ما عرف عنه انه اصبح بعد وفاة والده داعياً للاسماعيلية في فارس والعراق . فكان اول عمل قام به اتصاله بالملك البويهي « أبو كاليجار » الذي اعجب به واستمع اليه ، وحضر المجالس والمناظرات بينه وبين علماء المعتزلة(٤) والسنة والزيدية ، وامام تفوقه عليهم وافحامهم بقوة بيانه ودامغ حجته خضع ابوكاليجار اليه ، واستجاب الى مذهبه ، واعتبره المعلم الأول والمنعم ، ولكن هذا التحول حرّك طبقة العلماء والقضاة ، وجعلهم يوجهون انتقادهم ، ويعلنون عن غضبهم ومناصبتهم المؤيد في الدين العداء حسداً وبغضاً .

هذا ... وتشاء الظروف خلال تلك الفترة ان تتصدع اركان احد المساجد في مدينة « الاهواز » فيذهب المؤيد في الدين للاشراف على ترميمه وتجديده ، وهناك أمر بنقش اسماء ائمة الفاطميين بالذهب على محرابه وابوابه كما اقام خطبة الجمعة فيه باسم الخليفة الفاطمي « المستنصر بالله » ، فغضب عندئذٍ وهبَّ مذعوراً قاضي الاهواز ، وأرسل الى الخليفة العباسي « القائم بأمر الله » كتاباً ينعي فيه الدولة العباسية ، ويؤكد سقوطها على ايدي المؤيد في الدين ، وعلى الاثر ارسل الخليفة القائم بامر الله وزيره « ابن سلمة »[٥] الى شيراز مع كتاب الى ابي كاليجار يهدده بالاستعانة بالسلاجقة للاستيلاء على شؤون الدولة إذا ظل المؤيد في الدين قائماً بنشاطه . فخاف ابو كاليجار من عاقبة الأمور ، وأوعز الى المؤيد في الدين بالخروج من شيراز ، فخرج ميمماً شطر البلاد المصرية ، ووصل القاهرة سنة ٤٣٩ هـ .[٦]

في مصر الفاطمية وجد المؤيد في الدين امرها في ايدي حفنة من الوزراء النفعيين الوصوليين ففكر في الرحيل عنها ، ولكنه اصطدم برغبة الخليفة بالبقاء ... وهكذا عاش بين الدسائس والوشايات والمؤامرات ، فكان تارة يقرب ، واخرى يبعد ، فهو بين الرضى والغضب ... بين المد والجزر ... وهكذا فان العباقرة في كافة الازمنة والعصور يتعثرون ويبعدون حينما يحوطهم الفساد وتطوقهم سحب الغايات والاهواء .

ومهما يكن من امر ... فانه بعد مضي مدة قصيرة عهد اليه برئاسة ديوان الانشاء ، فتحسنت حالته المعيشية ، مما افسح المجال امامه للعمل والتفكير والتخطيط ، فأجرى الاتصالات اللازمة بالعراق ، وأرسل المزيد من الرسل لاستطلاع الاحداث والوقوف على مجريات الامور ، وبعد درس وتمحيص رأى بثاقب نظره وتوقد ذكائه ان السلاجقة في العراق يشكلون خطراً على الدولة الفاطمية ، وانه اذا ما تمّ لقائدها « طغرل بك »[٧] السيطرة على القيادة العسكرية في بغداد فسينتزع املاك الفاطميين في ديار الشام وأعالي الجزيرة ويضمها الى الدولة العباسية فضلاً عن ضغط شديد منتظر ستمارسه على الدعاة والعلماء والمؤسسات الفكرية الاسماعيلية في العراق وفارس ، وهذا ما جعله يهرع الى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ويطلعه على توقعاته ومشاريعه ، فاستجاب له الخليفة على الفور ، وأطلق يده في الامر ، وسلّمه شؤون

« المشرق » بوصفه خبيراً بأحواله وعارفاً بأوصافه .

وتشاء الاقدار في تلك الأيام أن يزداد نفوذ القائد « البساسيري » [٨] في الدولة العباسية ، ولما كانت تربط المؤيد في الدين علاقة ودية وثيقة به ، فإنه اجرى معه اتصالاً سرياً ، واتفقا على خطة للعمل يتولد من تنفيذها وآثارها وتقريرها سياسة جريئة تهدف الى الاطاحة بالعباسيين وابعادهم عن الحكم في العراق ، وبعد المزيد من المشاورات والدراسات تم الاتفاق بينهما على الاجتماع في العراق ، وعندئذ طلب المؤيد في الدين من الخليفة المستنصر بالله اذناً بالسفر ، فاستجاب له وزوّده بالخلع والاموال والهدايا والالقاب .. وهكذا سار ميمماً شطر المشرق .

في بلاد الشام جنّد المؤيد في الدين ثلاثة آلاف رجل من قبيلة « بني كلب » وأرسلهم الى « الرحبة » ليكونوا تحت امرة البساسيري ، وفي حمص ضرب المؤيد في الدين بأوامر الوزير الفاطمي الاول «اليازوري »** عرض الحائط وكان قد طلب اليه عدم الاتصال « بالمرداسيين »[٩] اصحاب حلب ، فأرسل الى « ثمال بن صالح بن مرداس » كتاباً دعاه فيه الى الاجتماع في مكان يسمى « الرستن »[١٠] ، وعندما تم اجتماعهما تمكن المؤيد في الدين من استمالته اليه ، وعقد معه اتفاقاً يهدف الى العمل المشترك ، وبعد ان اخذ عليه العهود والمواثيق سارا معاً الى حلب ، وفي « معرة النعمان » وافاهما بعض جند البساسيري بغية مرافقة المؤيد في الدين الى العراق ، وفي حلب اقام المؤيد في الدين مدة قصيرة سار بعدها الى الرحبة ومعه ثمال ، وفي الطريق وافاهما رسول « نصر الدولة احمد بن مروان » صاحب ميا فارقين وديار بكر حاملاً الترحيب والتأييد .

أخيراً ، وصل المؤيد في الدين مع مرافقيه وحاشيته الى الرحبة ، فخرج البساسيري مع اركان حربه واستقبله استقبالاً يليق به ، وبعد استراحة قصيرة عقدت الاجتماعات ، وجرت دراسة لمجمل الأوضاع ، وقد رؤي ان يتصل المؤيد في الدين بنور الدولة « الامير دبيس بن مزيد »[١١] صاحب « الحلة » وأمير بني أسد ، وبالفعل اقنعه بضرورة اللحاق به مع جيشه ليكون تحت امرة البساسيري ، ولمّا تم ذلك اصبحت الفرصة مواتية امام البساسيري فزحف باتجاه بغداد ، وكان ذلك سنة ٤٤٨ هـ . ولكن « قتلمش » ابن عم طغرل بك و « قريش بن بدران »

صاحب الموصل اعترضا طريقه ، فنشبت بينهم المعركة المعروفة بالتاريخ بمعركة « سنجار » التي انتهت بانتصار « البساسيري »[١٢] وهزيمة اعدائه ... ومما تجدر الاشارة اليه ان قتلمش لقي الاذى ، بينما لجأ قريش الى الامير دبيس فعفا عنه وضمّه الى جيشه بعد ان منح لقباً فاطمياً ... وهذه المعركة اوحت للشاعر « ابن حيوس » هذه الأبيات :

عجبتُ لمدعي الآفاق ملكاً وغايته ببغداد الركود
ومن مستخلف بالهون يرضى يُزاد عن الحياض ولا يزود
وأعجب منهما سيف بمصر تقام له بسنجار الحدود

عندما وصل المؤيد في الدين الى هذا الحد ، ايقن انه لا بد من استمالة القبائل العربية في الجزيرة والشام وتجنيدهم لتحقيق النصر الكامل خاصة ، وكان قد رأي بعض التردد على وجوههم في الاستجابة الى طلبه ، فطلب من البساسيري التمهل في الدخول الى بغداد ، وعاد الى حلب ونزل في موقع يسمى « بالس » ولم يلبث ان لحق به البساسيري ، وهناك تمكن المؤيد في الدين من استمالة بني عقيل وبني كلاب وبني نمير وبني خفاجة ، كما انه تمكن من التأثير على « ابراهيم بن نيال » وهو اخ طغرل بك من امه ، فأقنعه واغراه بالانفصال عن اخيه والانضمام الى البساسيري بحيث يوليه في المستقبل القريب اعلى منصب في الدولة .. وهكذا تهيأت للبساسيري كافة الامكانيات فزحف الى بغداد وتمكن من احتلالها بين اناشيد الجماهير وترديدهم .

يا بني العبّاس صدُّوا ملك الامر معدٌّ[١٣]
ملككم كان معاراً والعوادي تُستردُ

ويذكر المؤيد في الدين في سيرته :

ان دخول البساسيري الى بغداد قد تم سنة ٤٥٠ هـ . وعلى الاثر قرر الخليفة العباسي القائم بأمر الله الخروج عن بغداد ، ولكن البساسيري لم يسمح له إلّا بعد ان كتب بخطه وثيقة اعترف فيها بأنه لا حق له أو لأحد من بني العباس في الخلافة الاسلامية ، وان الحق للفاطميين

وحدهم ، وبعد ذلك سلّم اليه ثوبه وعمامته وشباكه[١٤] فأرسلهم البساسيري الى الخليفة المستنصر بالله علامة النصر ، وعندما انتهت تلك الاجراءات سمح البساسيري للقائم بأمر الله العباسي بالخروج من بغداد ، فذهب الى « حديثة ـ عانة » الواقعة على مقربة من الانبار حيث اقام فيها ، وبعد ذهابه اعلن البساسيري في خطبة الجمعة بجامع المنصور اسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، واصبحت بغداد تابعة للقاهرة الفاطمية ولأول مرة في التاريخ .

بعد هذا الانتصار الحاسم عاد المؤيد في الدين الى مصر ، ولكن لم يستقبله ، أو يحفل به احد ، وبالرغم من كل هذا قدَّم لرجال الدولة الفاطمية النصائح وطلب بالحاح مساعدة البساسيري عسكرياً ومالياً ، ولكن لم يستجب اليه احد ، وهكذا اضاع الفاطميون تلك الفرصة الذهبية التي هيأها لهم هذا الداهية السياسي الكبير ..

والحقيقة ، لو ان توصيات المؤيد في الدين نفذت لكانت حركته محت الخلافة العباسية من عالم الوجود ، ولكان تغيروجه التاريخ الاسلامي ، ولكن النصائح تذهب في الاودية ، والارشادات تضيع في المجاهل عندما تكون الاقدار قد رسمت صور الاشياء ، ولا بد من التذكير باننا ذكرنا بأن الدولة الفاطمية كانت تجتاز المرحلة الاخيرة من عمرها ، وتخضع لتيارات غريبة ولعناصر اجنبية كانت تعمل فيها تهديماً وخراباً .

واخيراً ، لم يدم الحال طويلا مع البساسيري ، فبعد ان فرغ طغرل بك من القضاء على حركة اخيه ابراهيم بن نيال التي أشعل نارها المؤيد في الدين ، زحف على بغداد بقوات كبيرة ، وعندما ايقن البساسيري ان لا قبل له على مقاومته سيما والمساغدات التي وعدت بها مصر لم يصل منها شيء ، كما وأن العديد من جنوده قد تفرقوا عنه بعد ان شعروا بضعف القيادة ، ونقص الموارد .. فقرر الجلاء مع جنده الى الكوفة ، وكان ذلك سنة ٤٥١ هـ ... بعد خروجه دخل طغرل بك بغداد ، ولم يلبث ان ارجع الخليفة العباسي القائم بامر الله الى قصره في بغداد ، وبعد ذلك ارسل القائدين : « خمار تكين الطغرائي » و « ابن منيع الخفاجي » الى الكوفة ، فحاصرا البساسيري ، وبعد معركة ضروس تمكنا من قتله .

وبعد استتباب الأمن في العراق ، تسلم الحكم طغرل بك ، فأقصى بقايا البويهيين وأعاد الهدوء والاستقرار الى البلاد ، ولكنه جرد الخليفة

من كافة صلاحياته .

هذا بالنسبة للعراق .. اما في مصر فقد حدثت مفاجآت غير منتظرة ، فبعد وفاة القائد الأرمني « بدر الجمالي » تسلم ولده « الافضل » مركزه ، ثم بعد فترة قصيرة مات الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، وعندئذٍ فرض الأفضل المستعلي بن المستنصر بالله من زوجته الارمنية خليفةً علماً انه كان ابن شقيقته كما ذكرنا وقد تم ذلك بقوة الجيش ، اما ولي العهد الشرعي « نزار » الابن الاكبر للمستنصر بالله ، فقد قتله الأفضل وجميع افراد اسرته .

هذه الاحداث عارضها الاسماعيليون في بلاد فارس وسورية ، وكان يمثلهم آنئذٍ « الحسن بن الصباح » الداعي الاكبر للاسماعيلية النزارية في بلاد فارس ، ومؤسس دولة « أَلَمُوتْ »[١٥] .

ان دراسة هذه الشخصية الفذة من جميع جوانبها مهمة جداً ، لأنها تعطينا فكرة عن المدارس الفكرية الاسلامية ، والمذاهب التي كانت في صراعٍ مرير في تلك الحقبة ، خاصة وان الصباح هو المؤسس الفعلي لدولة « ألموت » الاسماعيلية النزارية ، والشخصية الكبيرة التي لعبت دوراً رئيسياً على مسرح الاحداث في الشرق الأوسط منذ منتصف القرن الرابع حتى مطلع القرن الخامس ... هذا فضلاً عن انه مبدع المدرسة « الفدائية » التي كان لها اكبر الاثر في تحقيق وجود دولة « ألموت » وترويع الملوك والرؤساء الاجانب الذين كانوا يناصبونه العداء .

الحسن بن الصباح شيخ الجبل	Vieux de la Montagne	

لا بد لي قبل التحدث عن « الحسن بن الصباح » ودولة « ألموت » الاسماعيلية النزارية ، من ان اشير الى ندرة المصادر التاريخية عن هذه الفترة الغامضة المعقدة ... ومن الجدير بالذكر ان المصادر الاسماعيلية الاصيلة التي تنير السبيل ، وتروي التفصيلات عن الاحداث والحروب والوقائع قد احرقها هولاكو عندما اجتاح قلاع الاسماعيليين[١٦] في بلاد فارس ، وهكذا لم يبق في ايدينا الا المصادر الايرانية والعربية المتفرقة ، وهي على العموم لا يمكن الركون اليها ، لأن الذين كتبوها عرفوا بأنهم من اعداء الاسماعيلية ، او من الذين استجابوا ورضخوا لارادة الملوك والحكام المناهضين لها . والحقيقة : لا ادري بعد ذلك كيف يمكننا تصديق ما يكتبه المؤرخ عن عدوه ، بل كيف يمكننا ان ننوه بروايته او نعتبرها من المصادر الموثوقة ، التي يصح الأخذ عنها .

أما المصادر الهندية الحديثة سواء المكتوبة باللغة الأوردية ، او الانكليزية ، فاعتقد انها اساطير وخرافات صادرة عن عقول مريضة ، وفي مثل هذه الاحوال لا يبقى امامنا سوى المصادر التاريخية الاسماعيلية السورية ، وهي من القلة بمكان ، ولكنها على العموم تمثل بقايا التراث الاسماعيلي الذي احتفظ به بعض الافراد .

اذن .. ولما كنا نسير على مبدأ تحري الحقائق ، والركض وراء المصادر الموثوقة فاننا جعلنا اعتمادنا عليها ، وهكذا نخرج من عالم الاساطير ودنيا الخرافات وتخيلات بعض المستشرقين .

اسمه « الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسن بن محمد الصباح الحميري » .. ولد سنة ٤٤٧ هـ في بلدة « قم » بمقاطعة الري ببلاد فارس ، وتوفي سنة ٥٢١ هـ . في قلعة « ألموت » وليس كما ذكر سنة ٥١٨ هـ ، فيكون قد عمر اربع وسبعين عاماً قضى خمسة وثلاثين منها على رأس دولة ألموت الاسماعيلية النزارية التي شادها .

ينحدر الحسن بن الصباح من اسرة عربية تنتسب الى قبيلة « همدان » اليمنية ، وتتصل بملوك حمير اليمنيين . أما تاريخ وفود هذه الاسرة من اليمن الى الكوفة فقد حدث قبل مائة عام ونيف من ولادته ،

وفي ظروف غامضة ، اما كيف انتقلت من الكوفة الى بلاد فارس فيما بعد فغير واضح ، ولا يمكن تحديده او توضيح اسبابه .

لقبه : شيخ الجبل ، والداعي الاكبر ، وحجة الموت ، والرفيق ..[١٧] وكنيته : « ابو محمد » .

نشأ الحسن بن الصباح في بيت علم وأدب ووجاهة في ظل أسرة عرفت بأنها شيعية .. فهناك من يقول انها « زيدية » وآخر يؤكد بأنها « إثني عشرية » . تلقى علومه في « نيسابور » عاصمة مقاطعة خراسان . وبعد ذلك التقى بالداعي الاسماعيلي الكبير « عبد الملك بن عطاش » فلازمه وأخذ العلوم عنه .

وصفه مؤلف كتاب « ازهار الجنان »[١٨] فقال :

« كان شاباً وسيماً جريئاً عزيز النفس لا يبالي بالصعاب ، ويأنف من الصغائر ، وكان الى جانب ذلك فصيح اللسان عذب الصوت يؤثر في السامع ويجبره على الاستسلام لافكاره ، وقد وهبه الله الذكاء النادر ، والذهن المتوقد ، وأعطاه كل ما يمكن أن يعطي مؤسسي الدول من جرأة وعظمة وذكاء »

وقال صاحب كتاب « فصول وأخبار »[١٩] :

« كان الحسن سريع التنقل يحيط اعماله بالكتمان الشديد ، يعاونه دعاة اعلام على درجة عليا من الثقافة والعلوم والمرونة ، ففي مدة قصيرة تمكن من الوصول الى ما تمناه ، فانضم اليه العديد من ابناء الشيوخ والامراء والمدرسين والاغنياء فضلاً عن العمال والصناع ورجال الاعمال ، وأقام الحلقات السرية والخلايا للدعاية وللمراقبة ، كما تمكن من استقطاب بعض العلماء ورجال الدين من الشباب الذين اناط بهم التغلغل في اوساط الشيوخ ورؤساء الحلقات المذهبية واصحاب الطرائق الأخرى ، قاصداً اخراجهم وافساد افكارهم ، وادخال الشك والارتياب الى قلوبهم » .

وحصر الحسن بن الصباح اهتمامه بتنفيذ الافكار والمبادىء الهادفة الى القضاء على المجتمع الفاسد الذي كان يعيش فيه ، وهدم كل ما يحوطه ليقيم على انقاضه مجتمعاً صالحاً مستقيماً تكون قيادته الزمنية والروحية معقودة اللواء للأئمة الفاطميين من ولد « نزار بن المستنصر بالله » ، وأدخل في حسابه انه لا بد من توجيه ضربات مميتة للعباسيين

الذين ملأوا الدنيـا فساداً وطغياناً ، ولأعوانهم السلجوقيين ، ولرجال الدولة الفاطمية المستعلية الجمالية التي كان يتهمها بالانحراف والفساد والبعد عن الشرعية ... ويضيف مؤلف كتاب فصول وأخبار الى قوله :

وكان الحسن بن الصباح تاريخاً كاملاً وسفراً من اسفار البطولات ، بل كان الرجـولة والكـرم والوفـاء ... انه النسر الجريء الذي لا يمل الصعود في الاجواء ، ولا تثنيه العقبات عن التحليق في الاعالي ، وكان يتعشق المجد ويفتش عليه ويستصغر في سبيله كل جهد ... اما الجراح التي تثخن صدره وتنبثق من جنانه ، ومن كبريائه ، وتمنعه من ان يحس انبثاقها فقد كانت تهز جناحيه وتشجعه على الايغال في الصعود دون خوف او تردد ، وعمل بصمت ، واستمر يعمل بصمت حتى تمكن من الاستيلاء على سلسلة من القلاع وهي التالية :

زكـوه ، شاه دز ، خالنجـان ، برقائين ، زوزين ، خور ، خوسف ، شمسكوه ، ستوناوند ، اردهـان ، كردكوه ، الناظر ، طنبور ، خلادخان ، وقلاع وادي ألموت ... اما « ألموت » نفسها فجعلها قاعدة لدولته وأقام فيهـا ، ومنها كان يقوم باتصالاته ، وينظم فرق الفدائية التي ادخلت الرعب الى قلوب الملوك الاجانب المعادين ، وجعلت حياتهم عرضة للقلق وللهواجس .

« الأصدقاء الثلاثة »

مصادر عربية وأجنبية عديدة ذكرت ، ان الحسن بن الصباح ، وعمر الخيام ، ونظام الملك ، درسوا في مدرسة « نيسابور » على المعلم الامام « الموفق النيسابوري » ... وأضافت هذه المصادر : انهم كانوا في صف واحد ، ومن المبرزين بين الطلاب ، ولهذا توطدت بينهم اواصر صداقة متينة ، وقبل تخرجهم تعاهدوا على المحافظة على تلك الصداقة بحيث لا يهمل من يصيب منهم عملاً الاثنين الآخرين .

في تلك الفترة كان والد نظام الملك يقطن في « طوس » وبعد تخرج ولده نظام الملك من المدرسة ارسله الى ما وراء النهر ثم الى غزنه وكابول بقصد ايجـاد عمل فلم يتوفق ، وعند عودته عيَّنه السلطان السلجوقي « ألب ارسلان » وزيراً ... وعندما كان على رأس عمله وفد عليه الشاعر عمر

الخيام فاستقبله بمجالي الفرح وانزله منزلة طيبة وقال له :

ان انسـانـاً مثلك يمتلك ناصيـة العلوم والآداب والمعارف عليه ان يسـاهم بخـدمـة السلطان ، فاذا رغبت فاني على استعـداد لاعـطاء السلطان معلومات تقربك منه بحيث يسند اليك احدى وظائف الدولة ، فرفض الخيام التعاون وآثر الابتعاد عن الملوك او الدخول في خدمتهم ، واكتفى بأن طلب منـه تخصيص راتب يكفيـه ويكـون عوناً له لمتابعة تحصيله للعلوم وللآداب ، وامام هذا الطلب نزل نظام الملك عند رغبته وخصص له راتبـاً سنـوياً مقداره الف ومائتي مثقال ذهب ، فعاد الى نيسابور واستمر في دراساته .

أما الحسن بن الصباح فلم يأت لمقابلة رفيقه الوزير نظام الملك [٢٠] ، وأبت عليه نفسه مطالبته بتنفيذ بنود معاهدة الاصدقاء الثلاثة ، ولكن نظام الملك اسرع بطلبه وعهد اليه تنظيم « موازنة الدولة » فلبى الطلب وتمكن من انجاز ما طلب اليه في فترة قصيرة بوقت عجز عن القيام بتلك المهمـة أكابر الرياضيين الذين انتدبهم نظام الملك لهذه المهمة ، وهذا الانجاز لفت نظر السلطان ألب ارسلان ، فقرَّبه وأنعم عليه ، ولكن هذا التقدير لم يعجب نظام الملك ، فحسب للامر الف حساب ، وخاف على مركزه من الحسن ، وهذا ما دعاه الى القيام بحملة دس ووشاية ضده عند السلطان ، مما عجل بخروجه .

في تلك الفترة كان السلطان ألب ارسلان مشغولاً بالحرب مع الاتراك ، وعند وصوله الى قرب نهر جيحون ، احضروا اليه اسيراً يسمى « يوسف نرمزي » وكان قائداً على احد الحصون ، وقد صمد بوجه ألب أرسلان وجيشـه اكثـر من يومين ... واخيراً : استولوا عليه بعد قتال عنيف ، فاغتاظ الب أرسلان من هذا الرجل وأمر رجاله ان يأتوا به اليه ، وان يبسـطوه امامه على الارض ، وان يشدوا رجليه ويديه الى اربعة أوتاد مثبتة في الارض ، وان يتركوه على هذه الحال حتى يلفظ انفاسه الاخيرة ، وعندما استمع القائد الاسير الى هذا الحكم القاسي ارغى وأزبد وشتم السلطان ثم اخذ يبكي ويصيح ، فاستولى الغضب على السلطان ألب أرسلان وأشار الى رجاله ان يبتعدوا عنه بعد فك وثاقه ، وأسرع الى قوسه ورماه بسهم قاتل ، ولكن المهارة التي امتاز بها في الرماية خانته ، فهجم الأسـير عليه بعد أن وجد نفسه طليقاً ، وطعنه بخنجر طعنة مميتة في

خاصرته ، وقد حدث كل هذا في سرعة خاطفة ... واخيراً : قتل الاسير ..
أما السلطان ألب ارسلان فبعد يومين اسلم الروح من أثر الطعنة ، وكان قبل وفاته قد اوصى بخلافته لابنه « ملك شاه » والى ولده « اياز » بولاية بلخ ما عدا قلعتها ، ولولده « قاورت » بولاية كرمان .

بعد ان تسلم « ملك شاه » الملك اصبح آلة مسخرة بيد الوزير نظام الملك الذي وجّه عنايته الخاصة للقضاء على الحسن بن الصباح خاصة ، وعلى الاسماعيلية النزارية التي كانت دولتها قد ظهرت في ألموت ، كما وجه عنايته الخاصة ايضاً للقضاء على المؤسسات الفكرية التي أقامها الاسماعيليون في كل مكان ، وقابل ذلك حملة اخرى من جانب آخر شنها العباسيون في العراق بقيادة الخليفة المقتدي بأمر الله ، وكل هذا حفز السلطان ملك شاه الى توجيه انذار الى الحسن بن الصباح بواسطة الصدر الاكبر « ضياء الدين بن خاقان » ... وهذا هو الانذار مع رد الحسن عليه .

« من السلطان جلال الدين ملك شاه »
الى
الحسن بن الصباح (٢١)

علمت ... انك اظهرت فرقة جديدة ، وابتدعت ديناً غريباً تخدع به الناس وتغريهم بالخروج على « ولي الامر » ، وانك جمعت نفراً من سكان الجبال الاغبياء تدفعهم للفتك بالآمنين من الناس ، ثم تأكد لي انك تقدح في خلفاء بني العباس الذين هم قوام الاسلام وبهم يوطد نظام الدولة واركان الدين .
فعليك ان تقلع عن هذه الضلالة وتعود الى الاسلام ، والا فالجيوش الجرارة التي اعددتها لحربك اصبحت الآن على اهبة الاستعداد .
فارحم نفسك ونفوس اتباعك ، ولا تلقي بهم الى التهلكة ، ولا يغرنَّك مناعة قلاعك ، فلو ان « الموت » برجاً من ابراج السماء لهدمناها وجعلناها اثراً بعد عين ... والسلام .

من الحسن بن الصباح
الى
« السلطان جلال الدين ملكشاه »

عندما وصل الصدر الاعظم « ضياء الدين بن خاقان » الى هذه الزاوية الكائنة في الموت سلمني كتاب السلطان ، فزهوت فخراً ، ورفعت راسي عالياً حتى جاوز الجوزاء ، وبادرت فوراً الى الرد عليه مظهراً اعتقادي وواقع حالي ملتمساً منه الاصغاء الى قولي ، وان لا يشاور في امري من هم من اعدائي وعلى رأسهم

« نظام الملك » الذي دأب في كل وقت على تبديل الحق بالباطل والباطل بالحق ... وهو ما وقع لي معه بالامس واليوم كما لا يخفى على السلطان .

كان ابي رجلاً مسلماً على مذهب الامام الشافعي المطلبي ، ولما بلغت الخامسة من العمر ارسلني الى المكتب فدابت على تحصيل العلوم والمعارف ، وبعد مضي اربعة عشر عاماً اتقنت علم القرآن والحديث ، ولاح لي ما عليه الدين من الانحطاط ، ووجدت في كتب الشافعي روايات شتى في فضائل ابناء الرسول . فوجهت خاطري نحوهم ، وكان هدفي دائماً ولاية « امام الزمان » ولكن حب الدنيا جرّني اليها فنسيت مطلبي الأول ، ووجهت اهتمامي اليها ملقياً وراء ظهري عبادة الخالق القدير ، ولما كانت هذه الاحوال لا تحوز مرضاة الله فانه سلّط علي الاعداء ، فكنت افرُّ من مدينة الى اخرى ، ومن مهمةٍ الى آخر ... وغير خافٍ على السلطان ما نالني من نظام الملك ... ولما نجاني الله تعالى منه تيقنت ان الاشتغال بامور الدنيا لا يثمر ، فعدت الى الدين ، وطلب الآخرة ، وكان ان سافرت من الري الى بغداد ، واقمت فيها ادرس اوضاع تلك البلاد ، واتفحص احوال خلفاء بني العباس ، وفي الحقيقة علمت ان الدين منهم براء ، وانه لو كان الدين مبنياً على خلافتهم ، فالكفر والزندقة اولى .

ومن بغداد يممت شطر مصر التي فيها خليفة المسلمين الامام المستنصر بالله ، فدرست حاله وقارنت بين خلافته وخلافة بني العباس ، فوجدته احق منهم فيها ، فاعترفت له بالخلافة والامامة وتبرات من بني العباس ، ولما علم العباسيون بما كان مني من الموالاة للفاطميين ارسلوا نفراً ليأخذوني بينما كنت في الطريق ولكن الله نجاني ، ووصلت مصر مرة ثانية سالماً ، ولم يكتفوا بذلك ، بل ارسلوا الى امير الجيوش بمصر « بدر الجمالي » ما مقداره ثلاثة احمال من الذهب ، ووعدوه باموال طائلة اخرى اذا ارسل اليهم الحسن او راسه ، ولكن عناية امير المؤمنين الامام المستنصر بالله شملتني فنجوت من هذه المؤامرة ايضاً .

وعندما اوغر العباسيون صدر امير الجيوش الجمالي عليّ ثانية ، كلفني بالذهاب الى بلاد الروم لدعوة كفار الافرنج الى الدخول في الاسلام ، وعندما بلغ الخبر مسامع امير المؤمنين المستنصر بالله ، منعني من السفر ، وجعلني في كنفه واعطاني صلاحية العمل بدعوة الناس الى امامة ولده « نزار بن المستنصر بالله » فاذا كان في طالع السلطان سعادة فما عليه الا ان يعمل بالقول المأثور :

« اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » .

وعليه ان يصغي الى كلامي ، ويعمل على دفع الشر عن المسلمين وذلك كما فعل السلطان محمود بن سبكتكين ... واما ما قلتم بأني قد ابتدعت ديناً غريباً وملة جديدة ... فأعوذ بالله من ان اكون قد فعلت ذلك ... انا ادين بالدين الذي كان عليه رسول الله وأهل بيته ... ذلك هو الدين القويم الى يوم القيامة ..

ديني هو دين الاسلام ، واشهد ان لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله ... انني لست ممن يعملون لأمر الدنيا ، فكل ما اعمله خالصاً لدين الله الحق ، واعتقادي هذا قادني الى الاعتراف بان احفاد الرسول محمد (صلعم) وآله احق بخلافة جدهم من ابناء العباس ، ولا اخالك بعد ان ارسلت جيوشك من اقصى الغرب ، ومن محازاة القطب الشمالي الى الهند حتى سلمت لك هذه الممالك ، افترض بعد هذا ان يخرج الملك من ابنائك الى غيرك ؟. وفي الواقع ان الذين

يعتقدون بهم ويعتمدون عليهم لا يعلمون من امرهم شيئاً .. اما نحن فنعرف كل شيء عن احـوالهـم ، ولست ادري كيف يجيب السلطان الله تعـالى يوم الحساب ، وكيف تكون نجاته من العذاب ، اذا لم يدفع شرهم وينجي المسلمين منهم ؟

ان ما اقوله واطعن به واشنّع فيه صحيحاً .. فهذا ابو مسلم الخراساني الذي جاهـد وتعب حتى قصّر ايـدي بني مروان ، وانتقم ممن اهـرقوا دماء المسلمـين ونهبـوا امـوالهم ولعنـوا « آل محمد » على المنابر ، وعززوا الظلم وابعـدوا العـدل ... فهل رأيت كيف غدروا به وارقوا دمه ، وهل ننسى قتلهم الآلاف من ابناء الرسول الاعظم حتى ان من سلم من هذه العترة الطاهرة اضطر الى التستـر والاختباء ، وهل ننسى ضربهم « ابا حنيفة » الكوفي مئة سوط ، وذنبه انه كان عالماً وركناً من اركان الاسلام ، ويجب ان لا يغرب عن بالك قصة صلب « منصور الحلّاج » الذي كان قدوة الانام .

اما قولك باني اخدع الجهلاء ، وادفعهم للفتك بالناس ، فانّي بمثلي ان يقوم بذلك ، وهل قتل الناس من الامور اليسيرة التي يرتضيها الله ولا يعاقب عليها ؟

ان الذين انحرفوا عن الطريق السوي هم اتباع السلطان ، ووكلاء نظام الملك ، فهم الذين يقتلون النساء على مرأى من ازواجهم ، ويعطلون معاملات النـاس ، واذا استغاث احد او شكى امره فتذهب صيحته كصرخة في واد ، وينزل عليه الظلم والبلاء ، وكيف ننسى مؤامرة نظام الملك على « ابي النصر الكندري » عندما اتهمه بالتصرف باموال السلطان فحكم عليه بالموت في حين انـه بريء ، والمعروف ان نظام الملك عندما انتهى من جريمته الشنعاء اخذ يعمل في سرقة الاموال وينفقها على الابناء والبنات والاصهار ، وامتلاك القرى والمـزارع والقصور ، لقد اصبحنا وليس للمظلومين في عصرنا ملجأ يفزعون اليه ، واذا قام احد وآثر النار على العار ، وهانت عليه المنية تخلصاً من الذل والدنيّة أُهين ومات .

فما للحسن بن الصباح ، وهذه الامور ، فهو لا يحتاج ان يخدع الناس ، وهل يقع في الكون شيء الا بقضاء وقدر .

واما ما قلتم ... اذا لم تقلع عن هذه الامور فسنخرب مقرك ، فانا لم افعل ما يخالف اوامر السلطان وقد اخترت هذه الزاوية المتواضعة ، وجعلتها ماوى لي لاكـون بمنجاة من الاعداء الذين يحتالون في طلبي ويسعون في دمي ، فاذا ضمن لي السلطان امر الاعداء اقبلت اليه وتشرفت بين يديه وانخرطت في جملة عباده واشرت اليه ما استطعت باصلاح امر دنياه ، وتدارك امر آخرته ، ولن يصدر عني غير ذلك او خلاف « ولي الامر » :

« أطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم »

وبعـد ان بلغت هذه المـرتبـة ، واظهـرت هذه الدعوة العلوية الهادية ، وجعلت على هذه المراكز في طبرستان وقهستان والجبال الاخرى ، واجتمع لي الكثـير من الاصـدقـاء والرفقاء والاتباع من الشيعة الاسماعيلية حتى وقع الخوف في قلوب بني العباس ، فلا بد بعد هذا ان يسعوا في طلبي من السلطان ، فاذا استجبت لطلبهم نقضت العهد وخنت الامانة وخرجت من مرتبة الشرف والمروءة .

واما ما قلت بانه لو كان مستقري برجاً من ابراج السماء لجعلته اثراً بعد

عين ... فاقول :
ان للحسن اللائذ بهذا الحصن ثقة بقول امام الزمان :
« ان هذه القلعة ستبقى في ايدينا مدة طويلة »
انني اقوم في هذه الزاوية بالفرائض والسنن ، وبكل ما يفرض علي واجبي الديني ، وارجو من الله ان يهدي السلطان واركان دولته الى الصراط المستقيم فيطلبون السعادة في الدين والدنيا ، ويعملون كما عمل السلطان « محمود غازي » رحمه الله الذي اتى بالسيد علاء الملك « خدا وندزاده » من ترمز وجعله خليفة للناس كي يقيم الحق ويبني منارة العدالة .
فعلى السلطان .. ان يقوم بهذا الامر خير قيام ، ويكفي الناس الشرور والآثام ، والا فلا بد من ان يظهر للناس سلطان عادل يقيم سنن الحق ويخلص المسلمين من الضيم والظلم والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى .

« الحسن بن الصباح »

المصادر التاريخية التي اعتمدناها ، ذكرت بان الصدر الاعظم « ضياء الدين بن خاقان » عاد من ألموت وهو يحمل اطيب الانطباعات عن الحسن بن الصباح ودولته الاسماعيلية النزارية ... وعند وصوله قابل السلطان ملكشاه واطلعه على كل ما يتعلق بأوضاع الحسن ودولته ، وتضيف المصادر الآنفة الذكر على قولها :

بانه نصحه بضرورة التريث وعدم تصديق كل ما يذكره الوزير نظام الملك ، لأن الحسن بن الصباح لا يضمر اي شر للسلاجقة ، كما نصحه بضرورة تجنب خوض اية معارك مع الاسماعيلية الذين اعتصموا في قلاع منيعة لا يمكن لأية قوة ان تدخلها مضافاً الى ذلك وجود الرغبة لديهم بعدم تسليم قلاعهم لأية قوة مهما عظم شأنها .. وكان ضياء الدين قد استراح في « ألموت » لدى الحسن مدة اسبوع واستمع الى احاديثه ودرس خططه الاصلاحية التي قرر تطبيقها في دولته الفتية مستهدفاً فيها مصلحة امته العليا .

فلم تبدر من ملكشاه اية معارضة لما سمعه من ضياء الدين ، ويبدو انه استصوب رأيه واقتنع بصواب نصائحه ، ولكن الوزير نظام الملك لم يقف مكتوف الايدي امام تلك المحاولة ، فاتصل بخليفة بغداد العباسي ، وأوغر صدره ، وطلب اليه تأييده ومساندته في خططه ، مما جعله يخف الى مقر ملكشاه ويقنعه بضرورة الزحف على ألموت لتأديب الحسن واحتلال دولته وقلاعه .

وبالفعل صدرت الأوامر العليا للجيش بالزحف ، ولكن الاقدار شاءت ان يقوم ملكشاه قبل الزحف برحلة صيد في ضواحي بغداد ، وبينما كان في احسن حال يمارس هوايته المفضلة اصيب بعارض فجائي قيل انه « الحمى الدماغية » التي لم تمهله سوى بضع ساعات ، فقضى مأسوفاً عليه ، وتوقف الجيش عن الزحف .

بعد موت ملكشاه تسلم شؤون الدولة ولده « محمد الأول » الذي حرص على تنفيـذ ارادة والده ، ولما اصدر اوامره بالزحف على ألموت ، وقبل ان تتحرك جيوشه قتل الوزير نظام الملك في مدينة « نهاوند » وقيل ان القاتل هو احد الفدائية الاسماعيلية ويسمى « قاهر الأراني » وكان هذا الفدائي قد لبس ثياب الصوفية البالية ، وجاء الى مقر نظام الملك طالباً الاذن بالمثول بين يديه لتقديم عظة دينية ، وبعد ان اختلى به عاجله بطعنة خنجر مزقت احشاءه . أما الجيوش السلجوقية فقد وصلت الى قلاع الاسمـاعيلية ، ولم تلبث ان باشرت الحرب التي استعرت وشب اوارها وحمي وطيسها يوما بعد يوم ، وبينما كانت على أشدها جاء من اخبر قواد الجيش السلجوقي بمقتل السلطان « محمد الأول » من قبل مجهول ، فكان لا بد لجيشه من التراجع والعودة من حيث اتى .

وهكذا انكفأت جيوش السلجوقيين عن ابواب قلعة ألموت مولية الادبار تندب رجالها الذين سقطوا قتلى تحت اسوارها المنيعة ، وتبكي قوادها الذين ماتوا في سبيل غاية عمياء وجههم اليها الوزير نظام الملك ، فعادت الى همذان وهي مشتتة البال قلقة الخاطر تتنازعها الافكار وتعصف بها تيارات الخوف والهلع من الجيش الذي وقف بوجهها ، ومن القائد الذي خرج من قلاعه وحصونه ، ووقف على قمم الجبال الشماء يراقب ويعطي الأوامر لفدائيته بالوقوف على المعابر والمسارب والشعاب الضيقة يحصي على الغزاة انفاسهم دون ان يتحيفه اي تعب عندما ينحدر من الاعالي والمرتفعات ، او عندما يصعد من الأودية الى قمم الجبال لملاقاة العدو المهاجم .

لقد كانت صدور الكماة والغطاريف من جيش الحسن الفتي تتحرك نحـو ملاقـاة المهاجمين وهي تنادي وتهتف باسم قائدها رافعة رايات الموت ، وكانت اناشيدها تخترق الاسماع وترددها الأودية والسفوح .

وأخـيراً ، عاش السـلاجقـة وقلوبهم ملتـاعـة اثر سماعهم بمقتل

سلطانهم ، وفي طريق العودة كانوا يتحدثون عن ألموت وقائدها ومناعة الحصون والقلاع التي اعجزت النسور والعقبان .. لقد كان الموت يكمن في الابـراج وفي الاوديـة ، وكانت الحياة مضمونة لكل من يبتعد عنها ويركن الى الفرار .

مما تجدر الاشارة اليه ان « سنجار بن ملك شاه » تسلم الملك بعد وفـاة اخيـه محمـد الأول ، فجـرد حملة ثانيـة وانـدفـع نحـو قلاع الاسماعيليين ، ولكنه توقف في منتصف الطريق ، وأمر جيشه بالعودة بعد ان استيقظ ذات يوم ليرى خنجراً ملوثاً بالدم تحت وسادته ومكتوب عليـه اسم الحسن بن الصباح . اما أبناء الوزير نظام الملك وأكبرهم احمد فقد قتل في احد شوارع بغداد بطعنة خنجر من احد المجهولين وكان قد اركن الى الفرار ، ولم يتمكن احد من القبض عليه ، اما الثاني وهو « فخر الملك » فقد ذكر ان قاتله ايضاً احد الفدائية من مدينة نيسابور .

« خاتمة المطاف »

بعـد هذا السرد التاريخي الذي لم يكن بد منه ... يمكن تلخيص الأوضاع العامة كما يلي :

في القـاهرة « المعزية » دولة الفاطميين .. المستعليين .. الجماليين يقبض عليهـا القائد الارمني « الافضل الجمالي » ، وكان الحسن بن الصبـاح لا يمهل خلفاءها الغير شرعيين ، ولا يعطيهم فرصة للحياة . فأول الضحايا « الآمر باحكام الله » والثاني « الأفضل » نفسه وكلاهما قتل اغتيالاً مما اوقع الارتباك بالدولة ، وجعلها تسير في طريق محفوف بالاشواك والمخاطر .

وفي بغداد خليفة عباسي مات بصورة غامضة بعد عملية « فصد » وقد خلفه آخر ، ولكن لا الميت ولا الحي كان يملك من الأمر شيئاً .

امـا دولة ألـموت الاسماعيلية النزارية الفتية فكانت تخطو خطوات موفقـة وتسيـطر على الموقف وكانت مرهوبة الجانب وتفرض قوتها على الدول الاخـرى ... وامـا مؤسساتها الثقافية والعلمية فكانت منتشرة وتعمل في كل مكان من العالم الاسلامي ، تارة بطريقة علنية واخرى سرية .

في تلك الاجـواء المشحـونـة بالمـؤامـرات والقتل والانانية والفوضى والفساد وشهوة الحكام وتكالبهم على الحكم والانهيار الاخلاقي .. ولد الغزالي الذي نحن في صدد التحدث عنه .

هوامش

(١) تُنسب الاسرة « البـويهيـة » الى رجـل من الديلم يسمى « بويـه » كان يعمل صياداً في شواطىء بحر قزوين ، وكان على جانب كبير من الفقر ، وله ثلاثة اولاد هم : علي والحسن وأحمد ، وقد دخلوا في خدمة « مرداويج بن زيّار » الذي كان من قادة الديلم ، وقد علا شأنه سنة ٣١٥ هـ ، وأسس في خراسان دولة عرفت بالدولة الزيّارية واخيراً قتل سنة ٣٥٣ هـ .

ومن الجدير بالذكر : ان أولاد بويه ابدوا مقدرة كبرى اثناء خدمتهم في الدولة الزيارية فرقّاهم مرداويج في المناصب ، فولّى « علي » على الكرج فأصاب نجاحاً ، وأظهر له اهالي الكرج حباً وتأييداً مما اثار شكوك مرداويج وكاد القتال يقع بينهما ، ولكن موت مرداويج ازال ذلك وأتاح الفرصة امام الاخوة الثلاثة ، فاستولى الحسن على اصفهان والري وهمذان ، وبسط علي سلطته على كرمان ايضاً ، بعد ذلك مدّ البويهيون سيطرتهم على املاك الخلافة العباسية ، وكانت احوال بغداد السياسية في غاية الفوضى والفساد .

في سنة ٣٣٤ هـ . توفي « توزون » امير الامراء في بغداد ، فخلفه في منصبه قائد آخر كان يعرف « بابن شيرزادى » ، وبعد تسلمه القيادة ببضعة أشهر تحرك « احمد بن بويه » من الاهـواز وغـايته بغداد وحين سمع الخليفة المستكفي العباسي بذلك استتر خوفاً من اتراك بغـداد ، ولكن « احمد بن بويه » تمكن من الوصول الى بغداد دون كبير عناء ، وهنا ظهر الخليفة من مخبئه ، وعاد الى دار الخلافة حيث استقبل الفاتح الجديد ، وفي هذه الاثناء تقبل بيعته وخلع عليه ولقبه « معز الدولة » كما لقب اخاه علي « عماد الدولة » ، والحسن « ركن الدولة » ثم امر بضرب ارقامهم على السكة . وبعد ان اصبح معز الدولة سيد بغداد وضع خطة لانهاء النظام القديم بمختلف عناصره . فاعتقل الخليفة المستكفي وأهانه في سجنه ، ثم خلعه اخيراً من منصب الخلافة .

كان معز الدولة شيعياً « زيدياً » وهكذا كانت اسرته وعشيرته ، اما اهدافه فانحصرت بازالة الخـلافـة العبـاسية « السنية » من الوجود ، والاعتراف بخلافة « الفاطميين » الشيعة في مصر ، ولكن اعتبـارات اقليميـة وسيـاسية حالت دون ذلك ، وبالرغم من كل هذا فقد ظل البويهيون يولون الفاطميين عطفهم وتأييدهم .

في عهد معز الدولة وقعت الخلافة العباسية « السنية » ولأول مرة تحت حكم « الشيعة » فقد سيم الخلفاء العباسيون سوء العذاب ، وأُذيقوا مرارة الاهانة ، وبعد خلع المستكفي عين معـز الدولة « ابـا الفضـل المقتـدر » خليفـة ولقبـه « المطيع لله » ولكنه جرده من كافة الصلاحيات ، وحدد له راتباً محدداً . ومن الجدير بالذكر ان معز الدولة خاض معارك سياسية وعسكرية مع الحمدانيين في الموصل ، ومع البريديين في البصرة ، ومع القرامطة « الجنابيين » في الاحساء والبحرين ، ولكنه خرج من المعارك المذكورة منتصراً عزيزاً .

بعد وفاة معز الدولة تسلم الامارة ولده « عز الدولة » بختيار ، وكان والده قد اوصاه ان يستشير عمه ركن الدولة ، وابن عمه عضد الدولة حاكم فارس في كل ما يعترضه من احداث ، فلم يأخذ بوصية والده ، وعكف على اللهو والغناء والنساء ، ثم ادخل عناصر تركية في جيشه ، وأبعـد الديـالمـة ممـا اوجـد جواً مشحـونـاً بالمفاجآت ، وفتح باباً للصراع على النفوذ بين العنصرين ، في هذه الاثناء تحرك ابن عمه عضد الدولة سنة ٣٦٧ هـ ، وتوجه نحو بغداد فاستطاع احتلالها وأمر بأن يُتلى اسمه على المنابر الى جانب اسم الخليفة ، ولكن كل هذا لم يوطد الاستقرار ، فقد شغلته القوى المعارضة في الموصل وخراسان وعُمان وشبه الجزيرة .. واخيراً : تمكن من تحقيق انتصارات حاسمة .

كان يعتبر اعظم رجالات الاسرة البويهية ، وبعد وفاته عين ابو كاليجار مكانه ولقب « بصمصام الدولة » ... ومما تجدر الاشارة اليه أن ملك بصورة عامة اخذ في الانحدار بعد وفاته ، ووقع الصراع بينهم مما حرك القوى المعادية ، وأفسح المجال لقيام خمسة دول مستقلة في العراق والبصرة هي : الاهواز ، وفارس وكرمان والري وجرجان ، ولم يكن هناك بد من انضمام هذه الدول ، اما الى فارس واما الى العراق ، فقام صراع خفي بين العراق وفارس . وكانت وقتئذٍ بلاد فارس تعتبر من املاك شرف الدولة الابن الاكبر لعضد الدولة ، ومن جهة ثانية فان صمصام الدولة اصطدم مع أخيه ، وأسفر الاصطدام عن انتصار حققه شرف الدولة ، فدخل البلاد واعتقل صمصام الدولة ، وارسله الى احد القلاع مع الأمر بقلع عينيه ، وعندما توفي شرف الدولة خلفه في منصبه اخوه « ابو نصر فيروز - بهاء الدولة » ولكن عصياناً كبيراً من الجند اندلع ، وراحوا يطالبون بالاموال ويعترضون على حكمه ، ولكنه تغلب عليهم ، واحتفظ بمركزه لمدة اربع وعشرين عاماً .

بعد وفاة بهاء الدولة خلفه ابنه « ابو شجاع » سلطان الدولة ، فوقع صدام بينه وبين اخيه شرف الدولة الذي كان يتطلع الى بغداد ، ولكن الامر سوّي بينهما اخيراً ، فصار العراق لشرف الدولة وفارس وكرمان لسلطان الدولة ، وعندما تحرك شرف الدولة نحو بغداد استقبله الخليفة ، وكان من حسن حظه وفاة سلطان الدولة . وهنا تحرك الجيش وفرض ارادته واصبح اختيار الامير الجديد بيده ، وكان المرشحان هما : جلال الدولة اخ شرف الدولة ، وابو كاليجار بن سلطان الدولة ، وبعد مشاورات اختير جلال الدولة فاستدعي من البصرة ، وعندما اقترب من بغداد خرج الخليفة للقائه فدخل بغداد ، وبقي في منصبه حتى سنة ٤٣٥ هـ .

بعد وفاته استدعى الجند الاتراك ولده الاكبر الملك العزيز ابو منصور من واسط ، ولكن ابو كاليجار صاحب الاهواز زحف نحو بغداد ودخلها ولقب « الملك الرحيم » وهذا الامير كان آخر حكام البويهيين في بغداد ، وبعد وفاته دخل « الغز » العراق وأقاموا السلطة السلجوقية ، وكان ذلك سنة ٤٤٧ هـ .

(٢) « السلجوقية » هم فرع من « الغز » الاتراك الذين اغاروا على حدود فارس الشرقية والشمالية في منتصف القرن الرابع للهجرة . جدهم الاول هو : « تقاق » ومعناه القوس وهو والد سلجوق الذي كان اول من اتخذ الاسلام ديناً بين قومه . في بداية امره هبط من تركستان الى ما وراء النهر مع قبيلته فجعلوا مشتاهم في « نور » على مقربة من « بخارى » ومصيفهم في ضواحي « سمرقند » وبعد سلجوق جاء ولده « ميكائيل » ولكن الثلاثة الذين اعقبوا هذا الاخير كانوا من الملوك المشهورين وهم : طغرل بك ، وألب ارسلان ، وملكشاه . في عهد ملكشاه امتد سلطانهم من حدود الصين الى حدود الشام ومن اقصى بلاد المسلمين شمالاً حتى حدود اليمن جنوباً ، وقد دفع لهم اباطرة الروم الجزية ، واستطاعوا ان يحطموا دولتين كانتا من اقوى الدول وهما : الغزنوية ، والبويهية .. تنقسم السلاجقة الى عدة فروع اهمها :

سلاجقة طغرل بك الكبار ، وسلاجقة كرمان اسسها قره ارسلان ، وسلاجقة سورية اسها تتش بن ارسلان وسلاجقة العراق وكردستان اسسها مغيث الدين محمود ، وهناك ايضاً سلاجقة الروم في آسيا الصغرى .

من ملوكهم : الب ارسلان ، عضد الدولة محمد ابو شجاع ، استولى على حلب ، وغلب رومانس ملك الروم في « مانتريكت » ... ومن الجدير بالذكر انه مات من اثر جرح اصابه من يد جندي كرخالي ... بعد موته تولى الحكم ملكشاه ولم يكن له من العمر سوى سبعة عشرة او ثماني عشر عاماً ، وقد بلغت الدولة في عهده ازدهاراً وصعوبات في آن واحد ، وقد كان لوزيره الأول « نظام الملك » الفضل الاكبر في التغلب على الازمات ... كان يقيم في بغداد شتاءً مع وزيره نظام الملك ، وقد زوّج ابنته « زليخا خاتون » من محمد بن شرف الدولة ، وقد اقطعه

الرحبة وحرّان وسروج والرقة والخابور ، كما زوّج ابنته الثانية من الخليفة العباسي نفسه .
مما يجب الاشارة اليه ... ان مدينة اصفهان كانت مقراً وقاعدة لدولته . أولاده هم : بركياروق ، ومحمد ، وأحمد سنجر ... وقد اقتسموا البلاد بعد موته ، ولكن سنجر ظل اكثرهم قوة وبروزاً .

(٣) « بدر الجمالي » كان قائداً فاطمياً في عطاء . هو ارمني الجنسية ولكنه تظاهر باعتناق الاسلام ، وقد تميّز بالشجاعة والارادة ، وعندما ساءت الاحوال في البلاد المصرية الفاطمية استدعاه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله وعهد اليه بقيادة الجيش والوزارة الاولى ، وقد استطاع فرض هيبة الدولة وتأديب الاقاليم الخارجة وارجاع الاستقرار الى سابق عهده .. مما تجدر الاشارة اليه ان الخليفة المستنصر بالله تزوج ابنته فانجب منها ولده « المستعلي » الذي اصبح خليفة بعد والده بفضل مساعي خاله « الافضل الجمالي » الذي عهد اليه ايضاً بقيادة الجيش بعد وفاة والده ، وقد لعب الأفضل دوراً كبيراً وتمكن من ابعاد الولي الشرعي « نزار » الابن الاكبر للمستنصر بالله عن الخلافة ، واخيراً قتله مع افراد اسرته .

(٤) قال ابو العلاء المعري : « وسيدنا الرئيس الاجل المؤيد في الدين ما زالت حجته باهرة ودولته عالية .. والله لو ناظر ارسططاليس لجاز له ان يفحمه ، وافلاطون لنبذ حججه خلفه »

(٥) سيرة المؤيد في الدين تحقيق الدكتور محمد كامل حسين .

(٦) سيرة المؤيد في الدين تحقيق الدكتور محمد كامل حسين .

** اليازوري هو الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري [غياث المسلمين] خليل امير المؤمنين . هو من اشهر وزراء الفاطميين ، وقد ادّى لهم خدمات جلّى . هو فلسطيني الأصل ومن قرية « يازور » . كان والده ثرياً .. انتقل الى الرملة وولي القضاء فيها وعندما نقل الى القاهرة المعزية اعجبت به ام المستنصر فعينته مديراً لاعمالها بالاضافة الى مهمة قاضي القضاة ، وبعد فترة اصبح وزيراً وظلّ في الوزارة حتى سنة ٤٥٠ هـ حيث قبض عليه واعدم بعد ثبوت خيانته للدولة واتصاله بالقائد السلجوقي طغرل بك .

(٧) هو طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق بن ركن الدين « ابو طالب » ويعتبر مؤسس الاسرة السلجوقية .

(٨) هو ابو الحارث ارسلان بن عبد الله المعروف بالبساسيري وهو من بلدة بسا الواقعة على اربعة مراحل من شيراز ، وهو ايضاً تركي الاصل ومن مماليك البويهيين الشيعة .

(٩) بنو مرداس دولة عربية شيعية قامت على انقاض الدولة الحمدانية ، انطلقت من وادي الفرات وشملت حلب ومنبج وبالس والرقة والرحبة ، ثم حمص وصيدا وبعلبك وطرابلس وامتدت حتى « عانة » اسسها صالح بن مرداس .. انتصروا على الروم ارمانس سنة ١٠٣٠ .
أما ثمال بن صالح فقد توفي سنة ٤٥٤ ... ولي حلب .. في بداية عهده قاوم الفاطميين ولكنه اخيراً استجاب لهم بواسطة المؤيد في الدين .

(١٠) الرستن قرية كبيرة بين حمص وحماه واقعة على نهر العاصي .

(١١) هو دبيس بن صدقه توفي سنة ٥٢٦ .. امير الحلة وبادية العراق . من امراء بني مزيد الاسديين الشيعة . لقب بملك العرب اثناء الحروب الصليبية .. اتهم بقتل المسترشد العباسي .. اغتيل في بغداد .

(١٢) سيرة المؤيد في الدين ، تحقيق الدكتور محمد كامل حسين .

(١٣) مَعدّ هو الاسم الأول للخليفة الفاطمي المستنصر بالله .

(١٤) شباك الخلافة هو المقعد الذي كان يجلس عليه الخليفة وكان من الذهب المرصع بالجواهر والاحجار الكريمة .

(١٥) « الموت » معناها باللغة الفارسية « عش العقاب » وفي اللغة العربية يقول بعضهم انها تعني « اله الموت » او « الموت » من مات يموت ... تقع هذه القلعة في جبال « البرز » الفارسية الى الشمال الغربي من « قزوين » بناؤها تم سنة ٢٥٥ هـ . على يد الداعي الى الحق البويهي الزيدي ، ولما استولى عليها الحسن بن الصباح جددها واقام فيها الكثير من البروج .

(١٦) المصادر التاريخية اجمعت على ان مكتبة « الموت » الاسماعيلية التي عبث بها وأتلفها هولاكو كانت تحتوي على مليون مجلد عدا عن المراصد والاسطرلابات والتقاويم وغير ذلك .

(١٧) اول من استعمل كلمة « رفيق » هم الاسماعيليون .

(١٨) مخطوط اسماعيلي تاريخي تأليف : قيس الداديخي الحلبي من القرن السابع للهجرة .

(١٩) مخطوط اسماعيلي تاريخي تأليف : نور الدين احمد .

(٢٠) كان الحسن بن الصباح من الضالعين بالفلسفة وبعلم الفلك خاصة ، وله مؤلفات عديدة فقدت كلها ومنها كتاب « دستور المنجمين » وكتاب « الكرة » وقد ايد ذلك المؤرخ الايراني رشيد الدين في كتابه « جامع التواريخ » .

(٢١) مقتطف من كتاب « مجالس المؤمنين » تأليف القاضي « نور الله شوشتري » من علماء الامامية في القرن العاشر .

٢

الغزالي أمام التاريخ

هو : محمد بن محمد بن احمد . كنيته ابو حامد ، وحامد هو ولده الأول الذي مات وهو صغير .

ولد في قرية « غزالة »[٢٢] التابعة الى « طوس » الفارسية سنة ٤٥٠ هـ ، وقيل في « الطابران » وهو حي من احياء مدينة « طوس » .

كان والده يمتهن غزل الصوف ، وقيل انه من المنتسبين الى « الصوفية » ولم يكن له اولاداً سوى محمد وأحمد .

المصادر التاريخية اجمعت على القول : ان والده كان فقيراً معدماً ، وانه قبل وفاته اوصى احد اصدقائه بولديه وكان صوفياً مثله ، ولكن هذا الوصي الفقير ضاق ذرعاً بهما بعد نفاد كل ما خلفه لهما والدهما ، وبعد ان علمهما القراءة والكتابة ، فلم يستطع ان يوفر لهما العيش الطيب ، فأوكل الى احد دور العلم امر رعايتهما والاشراف على تعليمهما باعتبار انهما يتيمان الأب والأم .

بدأ « الغزالي » دراسة الفقه بعد الابتدائي على « أحمد الراذكاني »[٢٣] في طوس ، وعندما تقدم في دراسته قليلاً رحل الى « جرجان »[٢٤] طلباً للعلم ، وهناك لجأ الى الشيخ « ابي النصر الاسماعيلي » وهذا الشيخ على الأرجح هو « اسماعيل بن سعده » ومن دعاة الاسماعيلية المشهورين .. ومن الجدير بالذكر ان السبكي قد انفرد من بين المؤرخين القدماء في ذكر دراسة الغزالي على الاسماعيليين في جرجان . في حين اغفل اكثر المؤرخين ذلك عن قصد او عن غير قصد ، وربما يكونوا قد تجاهلوا ذلك لغاية عمياء ، وكأني بهم آثروا ان لا يذكروا المدارس الاسماعيلية الفكرية والدور الذي كانت تقوم به حتى يشيدوا بأهميتها وبما كانت تؤديه للانسانية من خدمات فكرية في ذلك العصر .

هناك ... مصادر تاريخية تذكر بأنه قد درس على الراذكاني في طوس في بادىء الامر وبعده على « الجويني »[٢٥] في نيسابور ، ولكن السبكي عاد وذكر : ان تعليقة الغزالي من الداعي الاسماعيلي قد سرقها منه

اللصوص عند عودته من جرجان الى طوس ، ثم اعادوها اليه بعد توسله اليهم لارجاعها ثم انهم سخروا من علمه القليل لتشبثه بها مما دعاه الى الاشتغال بها لمدة ثلاث سنوات ... اي منذ سنة ٤٧٠ هـ الى سنة ٤٧٣ هـ حتى حفظها .

في سنة ٤٧٣ هـ . رحل الغزالي الى نيسابور لطلب العلم عند المعلم « الجويني » رئيس المدرسة النظامية فدرس فيها العلوم والاصول وعلم الكلام ومبادىء الفلسفة ... ومن الجدير بالذكر انه في تلك الفترة ظهرت عليه علائم النبوغ ، مما دعا الجويني الى منحه رعاية وعناية خاصة . واخيراً : اوكل اليه مهمة مساعدته في شؤون التدريس . وبعد ان توفي الجويني سنة ٤٧٨ هـ . شد الغزالي الرحال الى « معسكر نيسابور » وهناك قابل نظام الملك الوزير السلجوقي ومؤسس المدارس النظامية المشهورة ، ويبدو ان نظام الملك طلب الاجتماع اليه بعد ان وصلته اخبار تفوقه ، واستجابته الى العقيدة الأشعرية ، وهكذا وجد فيه ضالته المنشودة ، واتخذ منه سيفاً يذود به ضد اعدائه وخاصة الاسماعيليين ، ومن الواضح انه منحه الصلاحيات الواسعة ، وزوده بما يحتاج اليه وأمره بالذهاب الى بغداد للتدريس في المدرسة النظامية الكبرى ، وكان له من العمر اربعة وثلاثين عاماً .

« في بغداد »

وصل الغزالي الى بغداد ، فحط الرحال فيها ، وكان الخليفة آنئذ « المقتدي بأمر الله » ومن المعروف عنه انه كان متديناً ، وحاملاً لواء الحرب على الاسماعيلية الذين خططوا لعزل سلفه الخليفة « القائم بأمر الله » عن كرسي الخلافة في بغداد بعهد القائد البساسيري كما ذكرنا ، لهذا اكرم الغزالي ووجد فيه الشخص الذي يمكن ان يتخذ منه سلاحاً لحرب اعدائه الاسماعيليين وتشويه سمعتهم ودعوتهم وفلسفتهم ، ولهذا اسرع بمنحه لقب « امام » ومن المعروف ان الغزالي ظلّ في بغداد قائماً بمهمته حتى تاريخ سقوط الوزير نظام الملك صريعاً بأيدي الفدائية الاسماعيلية ، وبعض المؤرخين حددوا المدة بأربع سنوات ، بينما ذكر

الآخرون بأن اقامته في بغداد امتدت حتى وقت موت الخليفة المقتدي بأمـر الله التي لم يصـدق احـد بأنهـا ميتـة طبيعية ، وعندما تسلم « المستظهر بالله » الخلافة طلب من الغزالي النزول الى ساحة الحرب الكـلامية ضد الاسماعيليين ، ولم يترك له فرصة للاعتذار ، وذكر انه هدده ، فلم يستـطع الّا الرضـوخ وتلبية ارادة الخليفة ، فألّف كتاب « المستظهري » او « فضائح الباطنية » .

وبعد ان ظهر الكتاب ، وتداولته الايدي في كل مكان ، ادرك الغزالي انــه اصبح مهدداً بالموت من قبل الاسماعيليين ، وبالسجن والتعذيب وربما بالموت من قبل الخليفة العباسي اذا هو توقف او احجم عن مهاجمة اعداء الخليفة التقليديين ، وهكذا وقع في جحيم الخوف والقلق .. وأخيراً :

آثـر الفـرار من ميدان المعركة تاركاً كل شيء حتى شهرته ومكانته ومستقبله وتاريخه وطلابه وكل ما يملك . فخرج من بغداد زاهداً في الدنيا مؤثراً الابتعاد عن مكامن النار تاركاً كرسيه في المدرسة النظامية لأخيه احمد وكالة .

هذا ... ويبـدو ان الغموض بعد خروجه من بغداد اخذ يخيم على حياته ، كما خيم في بدء عهده مما جعل اكثر المؤرخين يختلفون في امر الرحلة ، ووجهــة السير ومدة الاقامة ، ولكن الحقيقة تأبى الا الظهور مهما اعتراها من غموض .. فرحلة الغزالي تلك استغرقت عشرة اعوام ، وبدأت بانتقاله الى الديار المقدسة ، وبعد ذلك بقدومه الى دمشق حيث اقام فيها في احدى الزوايا ، ثم انتقل منها الى القدس في نهاية المطاف وبعـد ذلك الى الاسكندرية ، حيث ذكر انه كان يبغي السفر منها الى مراكش للالتحـــاق « بابن تاشفـــين »[٢٦] ولكنــه علم بمـوتـه وهـو في الاسكنـدرية ، مما حمله على العودة الى بغداد ، ولكنه لم يمكث فيها طويلاً ، فانتقل منها الى طوس وهناك استجاب الى طلب الوزير « فخر الملك بن نظام الملك » للتـدريس في المدرسة النظامية في نيسابور فقبل مكرهاً وعندما سقط فخر الملك صريعاً ، عاد الغزالي الى طوس بعد ان وجد الفـرصة سانحة ، فسكن في حي « الطابران » معتزلاً ومنقطعاً ومطلقاً الدنيا بأسرها ، ومقبلاً على العبادة والصلاة ، والتزود بعلوم الآخرة حتى وفاته سنة ٥٠٥ هـ .

« نحن والتاريخ »

دنيا من المتناقضات ، ومجموعة من الروايات تبرز امامي وانا أتجول في مرابع الغزالي .. والحقيقة :

فإني لم ار في حياتي او اسمع مثلما رأيت وسمعت وانا في عالم هذا الغزالي الغريب الذي تكتنف حياته الظنون ، ويحوط واقعه الارتياب ، وقد يكون من العسير جداً معرفة الاسباب التي اشاعت هذا الغموض ، ومهدت لهذا الظلام الذي يكتنف حياته ، وانه لمِمّا يدعو الى الاستغراب وقوف الباحثين والدارسين هذا الموقف اللامبالِي امام هذا التناقض ، وكأني بهم ارادوا ان لا يزعجوا انفسهم بالركض وراء الحقيقة المجهولة وطلب اللب والحقيقة بدل القشور .

لقد جاء في بعض المصادر التاريخية ولا اسميها كما عاهدت نفسي ، بأن والد الغزالي كان فقيراً معدماً وانه كان يعمل في غزل الصوف وبيعه للصوفيين مما جعل هذه الفئة من الناس يعتبرونه منهم ، وكان على هؤلاء الذين اصدروا هذه الفتوى التاريخية ان يدلوا لنا بالمزيد والتعريف عن هذا الأب « الصوفي » ... بل كان عليهم وهم امام الامانة التاريخية ان يقولوا لنا : من اين جاء ، ومن هو على الحقيقة ، ومن هم اهله وقومه ، وهل هو عربي ام تركي ام فارسي ام بربري ؟ ولكنهم لم يفعلوا وتركوا الامر كما هو دون ان يضعوا امامنا ما ينير السبيل ، او يشفي الغليل ، ولكن من مراجعة اسماء اسرة الغزالي وآبائه واجداده يتبين انها عربية مسلمة ، وقد تكون قد هاجرت من البلاد العربية الى بلاد فارس في ظروف غامضة ، وانني عندما الح في معرفة ذلك اضع امامي المبدأ الفلسفي القائل :

بأنه مهما تكن الظروف والاحوال فان للأب التأثير الأكبر على الابناء ... وخاصة في مجال العقيدة والمبدأ والانتماء ، وهكذا الام والرفقاء والبيعة والمعلمين ، سواء اكان ذلك بعاداتهم او اخلاقهم او عقائدهم .. من هنا كان على الباحثين والدارسين الغزالي ان لا يغفلوا هذه الامور عن والد الغزالي ... واعتقد ان غزل الصوف وبيعه ليس هو الشيء الوحيد الذي يجب ان نعرفه عن والده . من جهة اخرى ... فان هؤلاء المؤرخين اغفلوا ايضاً اسم الرجل الصديق الذي اوكل اليه الغزالي الأب

امر ولديه محمد واحمد ، فلم يذكروا لنا صفاته وعمله ، او يعطونا اية تفصيلات عنه ، كما انهم اغفلوا اسم الهيئات او الجماعات أو الأفراد الذين اخـــذوا على عاتقهم امـــر الانفـــاق على الاخـــوين والاشراف على تعليمهما ورعايتهما فيما بعد ، فكل ما ذكر حول هذا الامر جاء غامضاً تمام الغموض ... والحقيقة : فقد كان من الاهمية بمكان اعطاء المزيد من المعلومات عن هؤلاء الاشخاص ، ومن هو منهم الذي تولّى ايصال الغـــزالي الى المـــدرســـة الاسماعيلية ، وبعد ذلك من هو الذي نقله الى مدارس الاشاعرة ؟

ومن الواضح اننا لو عرفنا هذا او جزءاً منه لكانت وضحت امامنا سيرة الغزالي ، وانكشفت لنا اشياء ما زالت موضع شك وارتياب .

ونعـــود الى المصـــادر التاريخية لنناقشها بموضوعية وتجرد ، وهذه المـــصـــادر كانت قد ذكـــرت بأن الغـــزالي درس مبـــادىء الفقـــه على « الراذكاني » وهذا الفقيه ايضاً لم نعثر على اي بيان او تفصيلات عن حياته وعقيدته وانتمائه ؟ وتأبى المصادر الآنفة الذكر الا ان تضيف الى قولهـــا بأن الغزالي رحل الى جرجان للالتحاق بأحد دعاة الاسماعيلية وتلقي العلوم منه ، واني اتساءل ايضاً عن الأسباب التي دعت الى هذا التحـــول في حياة الغزالي « ابن المتصوف » وكيف قبل المسؤولون عنه ارساله الى مدرسة « باطنية » منحرفة كما يقولون عنها ، وقد عرفنا ان الاغلبيـــة من المسلمـــين كانت تحـــاربهـــا وترفضها وخاصة في البلدان الخاضعة لنفوذ العباسيين والاخشيديين « السنيّين » .. فهل وراء هذا الالتحـــاق امر آخر ظل مجهولاً ، ومن هو الذي اشار على الغزالي بأن يتوجه هذه الوجهة التي تكمن وراءها المخاطر ؟

اننا اذا قلنا بأن والد الغزالي كان من الاسماعيلية الذين اتخذوا من الصوفية ستاراً له لاخفاء عقيدته ، فقد لا يصدقنا احد ، وربما اتهمونا بالتعصب والخروج عن دائرة الحقيقة ، وهذا ما يجعلنا نتريث باصدار الحكم عليه وعلى صديقه الذي اوكل اليه امر ولديه ، ولكننا سوف لا نحجم عن تقديم البراهين الدامغة التي تدعم افتراضاتنا وتنفي الكثير من روايـــات التـــاريخ ، فنحن لا نتوخى سوى جلاء الحقيقة وحدها ، وابعاد الترهات .

ذكـر السبكي : ان الغـزالي ذهب الى جرجان بعد ان اتم تحصيل مباديء الفقه ، وهناك درس على احد دعاة الاسماعيلية ، ثم حصل من عنـده على « التعليقـة » وهـذه العـطيـة لم يكن يحصـل عليهـا الّا « المستجيب » الذي يكون قد وصل الى المرتبة الابتدائية في الدعوة الاسماعيلية .

ليكن واضحاً ... فنحن لا تهمنا اسماعيلية الغزالي ولا اشعريته او شافعيته او صوفيته بقدر ما يهمنا ازاحة الستار عن حقيقته ، واخراجه من كهف الظلام الحالك الذي حجب سيرته وشخصيته وأدبه .

وللحقيقـة ، فان الغزالي الفقير اليتيم كان وهو في هذا السن المبكر بحـاجة الى من يساعده ويأخذ بيده ليتمكن من اجتياز دروب الحياة العسـيرة ، وكان يتطلع ايضاً الى من يتولى رعايته وتوفير التحصيل له وانقاذه من براثن الفقر المدقع الذي يرزح تحت كابوسه . ومن الواضح ان تلك الفترة كانت بالنسبة اليه من اصعب الفترات ويكفي انها وضعته على مفترق الطرق وجعلته لا يملك الارادة للخروج من محيط التيارات السياسية العاصفة ، ومن اجواء المعارك الفكرية المتصارعة على الساحة الاسلامية التي كانت تجذبه تارة لليمين واخرى للشمال ، ويبدو انه لم يكن يملك الخيار ، ولم تقوَ شخصيته الضعيفة منذ ولادتها ، والفقيرة المعدمة ، من الوقوف امام التيارات الجارفة ، او الصمود امام الضغوط التي كانت تذهب الى حد تهديده بالقتل .

اني ارجح .. ان احدى الجهات المعادية للاسماعيلية مدت يدها اليه وهو صغير في تلك الفترة ، فتمكنت من استقطابه والسيطرة عليه في تلك البلاد التي كان يحكمها العباسيون والسلاجقة . ولا بد من القول بأن « الغزالي » بعد ان انتقل الى « نيسابور » وانتسب الى المدرسة النظامية تولى امره « الجويني » الاشعري فتمكن بقوة بيانه وقوة شخصيته من الاستيلاء على مشاعره وتوجيهه في المسالك التي رسمها له ، فرضخ الى اوامره واستجاب اليه مرغماً لأنه كان بحاجة الى العيش والى من يوفر له اسباب الحياة ويقيه شر العوز والفقر ... ولا احد يدري الا الله فيما اذا كان قد استجـاب اليـه عن رغبة وقناعة ؟ اما رأيي : فان الغزالي قد استجـاب اليـه كمـا قلنـا مدفـوعـاً بالحـاجـة الملحة ، لأنه رأى ان « الجويني » يتمتع بمركز ممتاز ، وان لديه الامكانيات اللازمة لتوفير كل

ما يحتاج اليه في حياته لا سيما وهو الممثل الثقافي الأول للوزير نظام الملك ، والمشرف على اكبر مؤسسة لنشر مذهب « الاشعرية » التي يعتبر نظام الملك احد دعائمها .

من جهة أخرى .. فاننا نرى الغزّالي لا يلبث بعد ان حقق النجاح المطلوب بوصوله الى اعلى رتبة في المدرسة المذكورة واعني بها « معاون المدير العام » فبعد وفاة الجويني ولّى وجهه شطر معسكر نيسابور لمقابلة نظام الملك وأرجح ايضاً ان الوزير المذكور هو الذي طلبه بعد ان كان الجويني قد حدثه عنه ورشحه لخلافته ، فأراد الوزير الاستعاضة به عن الجـويني المتـوفي ، ولكن الغزالي المرتعش خوفاً اراد الابتعاد عن مكامن الخطر ، فطلب نقله الى بغداد لأنها أكثر امناً وبعداً ولا بد ان تتـوفـر فيهـا الضمـانـات لحيـاتـه خاصة بعد ان اخذت التهديدات الاسماعيلية تخترق الاجواء وتستقر في آذان الاعداء ... واخيراً :

استجاب الوزير لطلبه على ان يبقى تحت تصرف الخليفة .

وصل الغزالي الى بغداد وقابل الخليفة العباسي « المقتدي بأمر الله » ولا بد ان يكـون قد حظي بعطفه وترحيبه ورعايته ، ثم اخذ مكانه في المدرسة النظامية الكبرى كمدرس ممتاز ، وتضيف المصادر على قولها هذا ، بأنه قد سبق قدومه الى المدرسة الآنفة الذكر اجراء اصلاحات في المدرسة المذكورة رافقها ابعاد بعض العناصر الفاسدة منها ، وادخال منـاهـج تعليمية واضافات جديدة مفيدة عليها ، ويبدو ان الاقامة في بغداد طابت للغزالي في بادىء الامر ، وظلت سائرة في طريقها الهادىء على خير ما يرام وذلك حتى سقوط الوزير نظام الملك صريعاً .. وهنا اخذ القلق يساوره من جديد وخاصة عندما سرت اشاعة في بغداد تقول :

ان وفاة « المقتدي بأمر الله » غير طبيعية ، وربما تكون قد تمت بفعل مؤامـرة دبرها الاسماعيليون[٢٧] ... فخاف الغزالي على نفسه وأقام في منزله مترقباً خائفاً ، فكان عندما يسير في شوارع بغداد يخشى من اية حركة تصدر ، فعيناه كانتا تتلفتان تارة الى اليمين واخرى الى اليسار فضـلاً عن التوقف من حين لآخر للنظر الى الوراء والى الامام لفحص القادمين والعائدين .. اما في الليل فكان لا ينام ، بل يبقى ساهراً مرتعداً من اية حركة تصدر ... لقد كان يتصور ان شبح الاسماعيلية يلاحقه اينما سار وحيثما توجه ، وتحول هذا القلق بين عشية وضحاها الى مرض

نفساني هو مرض « الخوف » ... وتشاء الاقدار ان يتسلم « المستظهر بالله العباسي » الخلافة ، فكان اول تدبير فرضه على الغزالي التصدي للاسماعيلية واعلان الحرب عليها وفضح عقائدها عبر النشرات والكتب والدروس والمحاضرات ، ولا بد ان يكون الغزالي قد تردد باديء ذي بدء وحاول الافلات من الشرك ، ولكن تهربه ، او رفضه اوامر الخليفة كان يعني العصيان والخروج واعطاء الدليل بأنه مؤيد « للباطنية » وكل هذا يعرضه للسجن وربما للقتل .

مسكين الغزالي .. فقد قُدِّر عليه ان يقع بين فكي كماشة ، او بين فريقين ليس في قلوب احدهما اية شفقة او رحمة . فالويل له اذا اخطأ مع جهة من الجهات او اساء التصرف . واخيراً :

كان لا بد له من الرضوخ لأوامر الخليفة وتنفيذ رغباته .. فكتب كتاب « المستظهري » او « فضائح الباطنية »[٢٨] .

انني لا ادري ما هي الاسباب التي تجعلني غير قادر على السكوت وانا في موقفي هذا بالنسبة لهذا الكتاب ... وقد كنت ذكرت في احدى المقالات عنه بأنه لا يعبر عن آراء الغزالي تعبيراً منطقياً . ويكفي ان يكون قد كتبه في وقت لم يكن يمتلك حرية الكلام والتعبير في وقت كانت الحراب مشرعة فوق رأسه والارهاب والتهديد يلاحقانه اينما سار وحيثما توجه .

اني من القائلين : بأن الغزالي منذ البدء لم يدخل في حسابه التعرض للاسماعيلية ، كما لم يرسم او يقرر الدخول معهم في نقاش وذلك لأسباب عديدة اهمها الخوف من خناجرهم ، وثانياً عرفاناً بجميلهم في « جرجان » وحدبهم عليه وهو صغير ، واني حتى الآن لا ادري الاسباب التي جعلتهم يتغاضون عن فكرة الانتقام منه بعد هجومه عليهم ، وهو الضعيف الاعزل ، في حين كانت خناجرهم تمزق احشاء الخلفاء والملوك والوزراء ... فكيف بمن كان مثل الغزالي لا حول له ولا قوة .

ومهما يكن من امر ... فان الغزالي اذا لم يكن من الاسماعيليين اصلاً كما يفترض او كما تؤكده بعض المصادر فانه على الأقل كان يود ان يحافظ على علاقة طيبة معهم ، فلا يتنكر لمن قدموا اليه في صغره العطف والرعاية ولا يقف في جبهة معاكسة لهم . ولكن شاءت الاقدار ان يهبط في كمين لم يستطع الخروج منه وهكذا كتب كل ما أُملي عليه تحت التهديد .. من هنا فان مقولاته عن الاسماعيلية جاءت مضطربة وغير

موضـوعيـة ومنطقية ، وكيف تكون على المستوى المطلوب وهي ليست منبعثة من خاطره او من ضميره ... انه لم يكن يمتلك الخيار ، بل كان عليه ان ينفذ الارادة العليا ، ويسلك هذا السبيل المليء بالاشواك والعثرات .

واخيراً ، يبدو ان الغزالي ضاق ذرعاً بالحياة التي يحياها في بغداد ، ولم يعد قادراً على العيش او تحمل هذا الكابوس الثقيل ، وهو الشاب المـرهف الحس .. الطيب القلب ... الضعيف والغـريب عن المجتمع . فحيـاتــه بين العبـاسيــين والاسمـاعيليـين هي حيـاة القلق والخوف والهواجس .. انه بين هاتين القوتين لا يجد امناً ولا راحة ولا استقراراً ، فاذا كتب فان كتابته تأتي بمجملها مضطربة وغير موزونة ، واذا سار فيخاف ان يتصدى له احد الفدائيين المتنكرين فيقتله بخنجره ، وكأني به كان يقول : « الويل لي اذا خالفت اوامر الخليفة » .

هذه الأوضــاع جعلتــه في نهاية المطاف يقرر الرحيل والابتعاد عن مكامن النيران تاركاً بغداد وشأنها والمكتبة والطلاب والخليفة والاصدقاء والشهرة وكل شيء ... ومن الجدير بالتنويه انه لم يخرج من بغداد الا بحجـة قضـاء فريضة الحج ، اذ لولا هذه الحجة لما كانوا سمحوا له بالخروج .. هذا ومن الغريب ان المصادر التاريخية اجمعت على القول بأن المدة التي قضاها في بغداد لم تتجاوز الاربعة اعوام ... ولا ادري نصيب هذا من الصحة ؟

اجل ... خرج الغزالي من بغداد ميمماً شطر الديار المقدسة ، وقبل خروجه سلم اخاه « احمد » كرسيه في المدرسة النظامية معلناً انه سيعود بعد اداء فريضة الحج المقدسة ، ولكنه كان يضمر في داخله التصميم على عدم العودة الى بغداد مهما كلف الامر ، ولم تطل اقامته في الديار المقدسة ، فذهب منها الى دمشق وهي المدينة التي قرر ان يحط الرحال فيها متطلعاً الى الامن والاستقرار في ربوعها ، وبالفعل نفذ القرار فاعتزل الناس ، وبعد فترة قصيرة عاد اليه الهدوء والاستقرار والارتياح فاتخذ « الزاوية » المعروفة « بالغزالية » في الجامع الكبير مكاناً لاستقبال طلابه وزواره ، وانصرف الى العبـادة والوعـظ والارشـاد والتـأليف ، وتـذكر المصادر انه اجتمع اكثر من مرة الى الفقيه « نصر المقدسي » وخلال تلك المدة وضع كتابه المشهور « احياء علوم الدين » وسوف نتكلم عن هذا

الكتاب في الصفحات التالية عندما يكون موضوع الغزالي ودوره في عالم الادب والفكر هو موضع الحديث .

من الواضـح ... ان الاقامة طابت للغزالي في دمشق خلال الاعوام العشرة التي قضاها في ربوعها ، ويبدو ان الحياة قد ضاقت بعد ذلك به لاسباب لم تعرف ، فغادرها الى القدس وأقام فيها مدة على مقربة من الصليبيـين ، ومنها توجه الى الاسكندرية « الفاطمية » ويقال انه كان يبغي الذهاب الى مراكش بالمغرب للعيش في ظل « يوسف بن تاشفين » بحيث امل ان يؤمن له العيش الرغيد ، ولكنه مع كل اسف علم بوفاته ، ممـا دعاه الى العودة الى طوس بطريق دمشق ـ بغداد ... ومما تجدر الاشـارة اليه انه غادر بغداد وقصد طوس للانقطاع فيها الى التأليف والعزلة والعبادة والابتعاد عن الحكام والناس ، ولكن الوزير « فخر الملك ابن نظام الملك » لم يمهله فطلب اليـه التـدريس في مدرسـة نيسابور النـظامية فلبى الطلب مكرهاً ولكنه بعد مقتل فخر الملك ترك التدريس نهـائياً ، وانتقل الى منزله في « طوس » حيث ابتنى زاوية انقطع فيها للعبادة والتأمل والزهد الى ان أدركته الوفاة .

بين الشك واليقين

تطرقنا في دراستنا هذه عن الغزالي بادئ ذي بدء وعصره السياسي والتاريخي . اعطينا صورة واضحة عن ذلك العصر المتقلب المضطرب سياسياً وفكرياً ، والمشحون بالاحداث والمفاجآت .. وبعد ذلك انتقلنا الى سيرة حياته ونشأته ، والمراحل الحياتية التي قطعها حتى آخر ايامه ، وكل هذا استقيناه من المصادر العديدة التي نثق بنزاهتها وببعدها عن الغايات والأهواء ... ولعل هذا يدخل في نطاق نقد المصادر التاريخية وتحليلها ومناقشتها طبقاً لخطتنا في كل ما نكتبه في التاريخ .

ونحن عندما وضعنا بعض الروايات المذكورة عنه على بساط البحث لم نحجم عن اعطاء رأينا فيها بصراحة مفصحين عن الكثير من القضايا المجهولة التي اغفل المؤرخون مناقشتها والافصاح عن آرائهم بالنسبة لها ... وهكذا فان المنهج الذي سرنا عليه في بحثنا يقوم على رسم صورة صحيحة لهذا العالم الكبير ، ومن خصائص هذا المنهج عدم الاكتراث بما ورد في بعض كتب التاريخ كما ذكرنا ، وتجنب الخوض في التفاصيل التي لا يصدقها العقل واتباع التحليل الذي ينقد التاريخ ويرفض الأخذ بالمواضيع والروايات على علاّتها دون مقابلة او مفاضلة او ترجيح .

والحقيقة :

فان الروايات التي وردت عن الغزالي جاء اكثرها مفرطاً في الغموض والابهام فضلاً عن الخلل والوهن ، مما حدانا الى تجنب المزالق السحيقة والتصدي لتكذيب الآراء المضطربة المستقاة من مصادر غير موثوقة .

والآن :

نرى لزاماً علينا ان ندرس حالة الغزالي والاضطراب العقلي والشك واليقين او المرض الذي اصيب به وأودى بأمنه واستقراره ، وجعله عاجزاً عن التعبير عن آرائه بحرية وموضوعية وصراحة ، بل وجعل كل ما كتبه يتأرجح بين الشك واليقين ، وبين الامن والخوف والمتناقضات .

لقد سبق لي ان قلت ان الغزالي قد اصيب « بمرض الخوف » وهذا المرض النفسي من اخطر الامراض التي تصيب الانسان . فهو لا يعرض لأحد : الا لمن لا يعلم ما هو الموت على الحقيقة ، او لمن يعلم الى اين تصير

نفسه [وهذا حسب رأي الفلاسفة] ... وهنا يكون قد وقع في الانحلال او ببطلان التركيب الصحيح ، ومعنى هذا انحلال ذاته وبطلان نفسه ، وقد يكون خوفه من ان تتعرض روحه للعقوبة في الحياة الاخرى وقلقه على ما يخلفه من اموال ، وعلى تركه الملذات التي لم يشبع منها ، ولابن سينا مقالات عديدة عن هذا المرض فهو يقول للخائفين من الموت :

انهم اذا كان خوفهم ناتجاً من جهلهم لخلود النفس والمعاد . فالجهل هو المخوف لهم في الحقيقة لا الموت ، ولو علموا ذلك لما خافوا . فالجهل مرض في النفس والبرء فيه اللذة والخلاص والراحة السرمدية ... وبمعنى آخر :

فان هذا الجهل هو الذي حمل العلماء على طلب العلم والتعب فيه ولأجله تركوا لذات الجسم وراحات البدن . فلما تيقن الحكماء ذلك واستبصروا فيه وهجموا على حقيقته ووصلوا الى الراحة والروح هانت عليهم امور الدنيا كلها ، واستحقروا جميع ما يستعظمه الجمهور من المال والثروة واللذات الحسية والمطالب ، وهي شؤون كثيرة الهموم اذا وجدت ، عظيمة الغموم اذا قعدت ، فاقتصروا على المقدار الضروري في الحياة الدنيا .

ويستطرد ابن سينا :

فيجب على العاقل ان يأنس بالتمام ويطلب كل ما يتممه ويكمله ويعلي منزلته ، وان يثق بأن الجوهر الشريف الالهي اذا تخلص من الجوهر الكثيف الجسماني خلاص نقاء وصفاء لا خلاص مزاج وكدر ، فقد صعد العالم الاعلى وقد سعد وعاد الى ملكوته وفاز بجوار رب العالمين وخالطته الارواح الطيبة من اشكاله واشباهه ونجا من اضداده وأغياره ... ومن هنا نعلم ان من فارقت نفسه بدنه وهي مشتاقة اليه مشفقة عليه وخائفة من فراقه ، فهي في غاية الشقاء والألم من ذاتها وجوهرها .

ويتابع ابن سينا فيقول :

ان الالم انما يكون بالادراك ، والادراك يكون للحي الذي تكون النفس ملازمة له ، واما الجسم الذي ليس فيه اثر النفس فانه لا يألم ولا يحس ، فالموت الذي هو مفارقة النفس للبدن لا يكون له الم لأن البدن انما كان يألم ويحس بالنفس وتأثيرها فيه ، فاذا صار جسماً لا أثر فيه للنفس فلا حس ولا الم ، وان من يخاف الموت لأجل العقاب ، فهو ليس

خائفاً من الموت بل خائفاً من العقاب اي خائفاً من ذنوبه ، وهذه الذنوب تبقى لها آثار ومنعكسات سيئة على النفس بعد الموت ، والاحرى بهؤلاء ان يتجنبوا ارتكاب الذنوب .

ثم يتكلم ابن سينا عن اولئك الذين لا يخافون الموت ، وانما يحزنون على ما يخلفونه من اهل وولد ومال ويأسفون على ما سيفوتهم من ملاذ الدنيا وشهواتها . فيقول :

ان مثل هذا الحزن لا يجديهم طائلاً . فالانسان من طبيعته الموت ، فمن احب ان لا يموت كمن احب ان لا يكون ، فكأن الواحد من هؤلاء يحب ان يكون ، وفي نفس الوقت يحب ان لا يكون ، وهذا من باب المحال ، فلو جاز ان يبقى الانسان لبقي من كان قبلنا ولم يموتوا .

واخيراً يقول :

ان الموت هو تدبير الهي حكيم ، وهو الصواب الذي لا غنى عنه . فالخائف من الموت هو الخائف من عدله وحكمته وجوده وعطائه ... وعلى العموم فان الذي يخاف الموت هو الجاهل ذاته وان الموت هو مفارقة النفس للبدن .

لقد مثل الغزالي دور العالم « الجبان » الذي ترتعد فرائضه خوفاً من الحكام ، ولا اتراجع عن القول بانه كان مصاباً ايضاً بمرض « ضعف الشخصية » او فقدان الارادة منذ نشأته ... لقد قلت ان الغزالي اجبر على مهاجمة الاسماعيليين تنفيذاً لأوامر العباسيين والسلجوقيين . واعتقد انه لم يكن يرغب ان يخوض مثل هذه الحرب الكلامية القاسية مع دولة ارهبت العالم بفدائيتها وخططها وأساليبها ، وعندما تكون هذه رغبة الغزالي فليس معناه انه من الاسماعيليين انفسهم ، ولكنه على الأقل كان حريصاً على اتقاء شرهم .. هذا اذا لم يكن قد تأثر بافكارهم وعقائدهم وفلسفتهم قبل ان يحتويه « الجويني » ويسيطر على مشاعره وعواطفه ، ويجعل منه دمية يتلاعب بها ويحركها كيفما شاء .

ان كل هذا يجعلني اتناول بالبحث حالة الغزالي النفسية ، وهو في سن مبكرة ... فهذا الغلام اليتيم الأبوين ، المحروم من عطف الاعمام والاخوال والأهل لم يكن يسمع كلمة عطف او حنان من احد حتى من شقيقه الأصغر « احمد » الذي كان الغزالي ملزماً برعايته والتخفيف عنه .

ولعل الاقدار شاءت ان يحرم وهو في هذه السن من العطف والحنان وخاصة عندما كان يرى نفسه محروماً ويعيش مع الحرمان جنباً الى جنب ، فلا يجد من يدفع عنه غائلة الجوع وهو يتنقل من مدرسة الى اخرى يلتهم العلم ويسهر الليالي ... فحالة مثل هذه تولد في الانسان الضعف وانهيار الارادة ، والنقمة على كل شيء .

اجل ... وكأني به كان يستجدي اكف المحسنين ، وعندما اغلقت الابواب في وجهه لم يجد امامه سوى اللجوء الى من يرعاه ويوفر له العيش والعلم ، ويبدو انه وجد اخيراً في مدرسة نيسابور النظامية ولدى مديرها الجويني ما يحقق رغباته وأمانيه ، فلم يشعر الا وهو امام هذا العالم « الاشعري » يلقنه الدروس والمبادىء ويدفعه في المجالات التي تفرض عليه الانقياد والتنفيذ والالتزام .. فماذا يفعل ولا خيار ولا ارادة ولا شخصية تمتلك القوة لرفض الطلب ، وهكذا كان ما كان .

ومهما يكن من امر ... فإني قلت ولا ازال اكرر القول : بأن الغزالي لم يكن يمتلك القدرة الارادية ولا قوة الشخصية ولا الجرأة التي تمكنه من الوقوف موقف الرافض لأوامر الجويني الاشعري ، واني على يقين بأنه كان يخاف من الفقر والعودة الى حياة الحرمان ، فأعصابه لم تكن تتحمل حتى ذكريات تلك الايام السود التي ذاق في خلالها المرارة والتعاسة ، وهذا ما جعله يستجيب الى كل نداء او امر يفرض عليه رغم وجود حالة داخلية عنيفة من تأنيب الضمير والتردد والخوف . فالى اين يذهب وهو الشاب الضعيف اليتيم الذي فقد حنان الآباء ، والأهل وربما الوطن ، فأصبح لا حول له ولا قوة .

في تلك الفترة كانت شهرة الغزالي تنتشر وتطبق الآفاق يحملها الناس من مكان الى مكان ، ويترنم بها الكبير والصغير ، وهذا بالاضافة الى طلاب معجبين اخذوا يتناقلون كلامه ويتندرون باحاديثه ويلجأون للاستفادة من علومه ، ولكن كل هذا لم يكن يرضيه او يرفه عنه ، او يعيد الامن الى نفسه الحائرة العائشة في بحر من القلق والخوف .

ويمكن القول انه بعد وفاة الجويني ساوره المزيد من القلق ... لقد خاف على نفسه من البقاء في « نيسابور » حيث يكمن فيها وفي جوارها شبح الموت وخناجر الفدائية الاسماعيلية ، فصارح الوزير نظام الملك طالباً اليه بالحاح الالتحاق بمدرسة بغداد النظامية ، فهناك ربما تكون

حياته اكثر امناً واستقراراً ... انها مدينة الخلفاء العباسيين وعاصمة العـالم الاسـلامي المشرقـي من جهة ، والقاعدة البعيدة كل البعد عن « ألمـوت » الاسمـاعيليـة النـزاريـة ، وعن حرابها المسلطة على رقاب الاعـداء ، فلبّى الوزير نظام الملك الطلب شفقة عليه وصوناً لحياته ، ولكن هل كانت حياته في بغداد اهدأ وأسلم منها في نيسابور ؟ ان كافة الدلائل تشير الى ان كلتا البلدتين كانتا غير مختلفتين ، او بعيدتين عن خناجر الفدائيين الاسماعيليين ... ولهذا لم يكد يحط رحاله فيها ويدرس احوالها الا وتصبح لديه فكرة بأن الخطر في نيسابور مثله في بغداد ، وان خناجر الفدائية لا يوقفها حد ولا تقاومها قوة ، وقد يكون القلق الشديد قد تضاعف ، وادرك ان حياته لا تزال مهددة ، وان لا شيء ينقذه سوى الفرار من المعركة والاعتكاف في مكان بعيد عن الانظار .. اجل كان عليه ان يتخلص ، ولكن الخلاص لم يكن متيسراً ، وان دونه خرق القتاد . واخيراً : قرر الصبر والاستسلام للاقدار .

لا ريب ان الغزالي نال في بغداد كل ما يمكن ان يناله عالم او فقيه ، فبـالاضافة الى عطف ورعاية الخليفة العباسي ، كان هناك اجماع من العلماء ورجال الفكر على تفوقه في مجال العلم ورساخة عقله وفضله على طلاب العلوم وذكائه وبراعته في التأليف والتدريس والتعبير .

هذا ... ويدور في رأسي سؤال طالما الحّ بالجواب الشافي ، وانا في صدد التحدث عن الغزالي ، وهو لماذا انتقى العباسيون والسلجوقيون الغزالي وأوكلوا اليه مهمة التشهير والقدح والذم والتقريع بالاسماعيليين ؟ بينما يوجد في بغداد والمدن التابعة لها عشرات العلماء ، واذا كان في عدادهم من لا يلحق بالغزالي علماً وفكراً ، فان فيهم من لا يقصر عنه .

قد تكون الاجابة على هذا السؤال من الصعوبة بمكان ، ولكن لا بد من القول بأن العباسيين وخلفاءهم السلجوقيين ، اذا لم يعتبروا الغزالي انـه من الاسمـاعيليـة ، فانهم على الاقـل كانـوا يقـرون بانـه درس الاسماعيلية واطلع على فلسفتها وعقائدها وكل شيء عنها ، فصار توكيله بهذه المهمة من الضرورة بمكان على قاعدة : [ان صاحب البيت ادرى بالذي فيه] والشهادة عندما تأتي من اصحاب القضية فانها تكون أكثر قيمة وحجة ومنطق .

« في دمشق »

ومن الديار المقدسة هبط « الغزالي » دمشق كما قلنا بدلاً من بغداد ... مما اثار فيها الكثير من الهمسات والاشاعات والاستنتاجات وخاصة في الاوساط العلمية والسياسية ، ولا شك ان اكثرية الناس صدقوا كل ما كان يدور على الالسنة من ان الغزالي لا يخرج عن كونه اسيراً بأيدي العباسيين والسلجوقيين يملون عليه الآراء والموضوعات فيسجلها مرغماً دون ان تبدر منه اية بادرة ، وهذا معناه انه فقد الحرية في القول والعمل ، وأصبح كالكرة في ملاعب الاطفال .

في دمشق ... لجأ الغزالي الى الجامع الكبير « الاموي اليوم » فأعطي زاوية لا تزال حتى الآن قائمة ومعروفة بزاوية الغزالي ، فاتخذها مقراً ومكتباً وأخذ يعطي الدروس على الطلاب والراغبين ، ويعقد الاجتماعات مع العلماء ، وانصرف الى التأليف .

وتبقى ناحية جديرة بالبحث وهي : من اين كان يعيش الغزالي في دمشق ؟ ومن هي الهيئة التي كانت توفر له المعاش والغذاء والكساء .. فهل نستطيع القول بوجود جهة غير معروفة كانت تقدم له كل ما يحتاج اليه ، ام ان الغزالي كان يملك رصيداً من المال ، مما وفر له العيش ، او ان كل هذا كان يتم ويقدم من الهيئة الدينية المشرفة على المسجد المذكور ؟ ولا بد من التساؤل عن سوق « الاشعرية » في دمشق وهل كان قائماً ومزدهراً ، وهل كان الغزالي يقوم بالدعاية لهذا المذهب ؟ ان الجواب على هذا السؤال يبدو عسيراً لأن المؤرخين تجاهلوا كل ما يتعلق به ، ومن جهتنا ننفي كل انتماء للغزالي بالاشعرية .

ومهما يكن من امر ... فان الغزالي مارس الطقوس الدينية الاسلامية ، وانقطع الى العبادة والتأمل مما جعل حياته تصطبغ بالصبغة « الصوفية » ، واننا نرى العديد من الباحثين يدخلونه في عداد المتصوفين وكأني بهم لم يعرفوا بأن صوفية الغزالي لم تكن سوى « زهد » او عبادة خاصة وانقطاع ذاتي وتوجه نحو الصلاة والابتعاد عن الناس ، وكل هذا يختلف عن الصوفية العملية وطقوسها وحلقاتها وشطحاتها وحلولها ... وفي نهاية المطاف نقول :

بعد ان مضى على الغزالي ما يقارب العشرة اعوام في دمشق قضاها في

كل طمأنينة وهناء وارتياح ، نراه يعلن عن رغبته بالسفر الى المغرب ، دون ان يذكر احد المؤرخين الاسباب التي دعته لهذا السفر المفاجىء ، فذهب الى القدس ، وأقام فيها فترة على مقربة من الصليبيين ، ثم انتقل منها الى الاسكندرية فأقام فيها فترة ، وذكر انه كان ينوي السفر منها الى مراكش للعيش في ظل « يوسف بن تاشفين » ولكنه علم هناك بوفاته ، وعندئذٍ شعر ان الابواب قد اغلقت بوجهه ، وان عليه العودة الى مسقط رأسه مهما كانت النتائج ، وهكذا عاد الى بغداد ومنها الى طوس .

اننا لا ندري الاسباب التي دعت الغزالي الى ترك دمشق والالتحاق بالقدس ، وبعدها بالاسكندرية كما ان المؤرخين لم يكشفوا لنا عن الاسباب التي دعته الى القيام بهذه التحركات . فهل شعر بخطر جديد او تهديد ام ان القصة عبارة عن مخاوف نفسية عادت اليه من جديد ؟ بكل اسف لا نستطيع ان نؤكد الاسباب او ندرك لماذا تغاضى المؤرخون عن كل هذا !

وصل الغزالي الى بغداد قادماً من دمشق ، فلم يمكث فيها سوى ساعات معدودة ذهب بعدها الى طوس حيث لازم منزله ، ولكن الوزير « فخر الملك بن نظام الملك » خفَّ اليه وأمره بالعودة الى التدريس في مدرسة نيسابور النظامية ، فقبل المهمة ، ويبدو انه لم يستطع الاعتذار خوفاً ، وهكذا عادت اليه الحياة الاولى التي كانت سبباً في هجرته ومرضه ، وربما لحسن حظه ، اذ لم يلبث الوزير فخر الملك ان قتل بأيدي الفدائية الاسماعيلية وعندئذٍ وجد الفرصة سانحة امامه للانزواء وللاعتزال ، فعاد الى منزله في طوس .

أما عدم مكوثه في بغداد وهو قادم من دمشق فلربما كان يخشى من ان يطالبه الخليفة العباسي بالتدريس في المدرسة النظامية الكبرى ، والقيام بنفس الدور الذي اسند اليه في الامس ، وكما نرى فانه افلت من الشرك ، ولكنه لم يكن يدري ان شركاً آخر قد نصب له في نيسابور .

ومهما يكن من امر ... فان كل هذا يعزز قولنا بان الغزالي كان ضعيف الشخصية والارادة فلم يستطع مجابهة الحكام او رفض طلباتهم ، وبالامكان اعتبار ما كتبه عن « الباطنية » كان رغماً عنه وبدون رغبة منه او خيار ... وهذا الرأي ندلي به ونحن مطمئنون .

« بين المرض والجنون »

اقف بحذر امام هذا العنوان ، واتجنب الذهاب الى ابعد مما رسمته خوفاً من الانزلاق في المهاوي السحيقة . فالمصادر التاريخية التي وقفت موقف اللامبالاة من الغزالي تعيق سيرنا ووصولنا الى الهدف المنشود ، وتجبرنا على التوقف امام التاريخ نستجدي المعلومات ونستنتج الاخبار .

ومهما يكن من امر فدراسة الغزالي من جميع جوانبها تبدو شيقة لأنها غامضة ومعقدة ومجهولة . وباعتقادي ليس هناك أحلى ولا أبهى من اكتشاف المجهول ، او اعطاء صورة قريبة عنه ، ففي ذلك خدمة كبرى للفكر وللانسانية .

اجل ... انه من العسير جداً علينا ان نقول : ان الغزالي كان مجنوناً ، فلم نعثر على ما يشير الى ذلك لا من قريب أو بعيد ، ولكنه ترك لنا ملخصاً عن سيرته بالامكان دراسته واستنتاج الكثير منه ، وهذا ما سنقوم به .

باعتقادي لم يكن الغزالي مجنوناً مثل بقية المجانين ، وانما كان مريضاً داهمه المرض منذ ان كان صغيراً ولم يتركه حتى وفاته ، وقد كنا سمينا هذا المرض « مرض الخوف » فالغزالي لم يكد يبصر النور حتى فقد امه ، فعاش ايام طفولته في حجر والده الفقير الذي كان عاجزاً عن ان يوفر له ما ينسيه والدته البارة ، وعندما شبّ وترعرع مات والده ، فكانت صدمة عنيفة جعلته وحيداً في هذه الدنيا ، ومحروماً من اي عطف او حنان الا من رجل فقير كان صديقاً لوالده ، فعلمه مبادىء القراءة والكتابة ، وظل يشرف عليه حتى عجز ، وعندئذٍ كان لا بد من تسليمه او تركه لأيدٍ اخرى تأخذ على عاتقها امر اعالته وتعليمه . ان هذه الوقائع اضافت الى نقمة الغزالي على الاقدار نقمة اخرى ، وهو بعيد عن الأهل والاصدقاء والمحبين .

بعد هذا العرض ... لا نريد ان نكرر ما قلناه ، او نتعرض للمراحل الصعبة التي كان يجتازها ، وكيف انتهى به المطاف الى ان يصبح دمية بأيدي الخلفاء العباسيين والوزراء السلجوقيين يوجهونه لمحاربة اعدائهم مما يخرج عن نطاق ارادته ، ولكنه لم يكن يقوى على المقاومة

او الرفض .

فما للغزالي وللاسماعيليين يتصدى لهم ويهاجمهم ويسبُّهم ويكشف عن عيوبهم في وقت لم تبدر منهم اية اساءة اليه .. وكان لاعوام خلت يتلقى التعاليم والدروس من شيوخهم وفي مدارسهم الفكرية . ان كل هذا جعله يعيش في بحر من القلق والآلام ، فكان لا يملك الشجاعة لرفض اوامر الخلفاء والوزراء « والويل له اذا فعل » ، ولم يقف الامر عند هذا الحد ، فقد كان ايضاً يحسب الف حساب لما يمكن ان تفعله المؤسسة الفدائية الاسماعيلية معه وهي التي ارجفت القلوب وأشاعت الخوف والهلع في قلوب اعدائها ، ولم يكن يدري ماذا سيكون موقف هذه الجمعية من رجل نهل من علومها وفلسفتها ثم انقلب عليها وخرج منها اخيراً ، وكل ذلك كان يشكل لديه قناعة بأنها عملية فيها نكران الجميل ، فندم على ما بدر منه وليت ساعة مندم .

انه لموقف عسير يتعرض اليه الغزالي وهو في عز الشباب ... وأتخيله يتصارع مع الخوف والقلم يرتجف في يده ، وعندما يحاول الكتابة لا يجد سهولة في التعبير او اعطاء المواضيع المجردة حقها ... وكل هذا ظهر واضحاً في الكتب العديدة التي وضعها ، والتي جاءت طافحة بالمتناقضات ، ومن هنا ارى من الواجب ان أنبِّه الباحثين الى ضرورة اعادة دراسة كتب الغزالي وتقسيمها وفرزها .. واني من القائلين بأن كتبه التي وضعها في دمشق تختلف في اتزانها ومنهجها ومحتوياتها عن الكتب التي ألفها في بغداد ونيسابور .

وأخيراً ، لا بد من العودة الى المصادر التي تتفق معنا في الرأي .. فقد ذكر « ديورانت »[٢٩] : « بعدئذٍ رأى الغزالي بما لا يقبل الشك بأنه قد أصبح مهدداً بالخطر المحدق به من كل جانب ، فالباطنية يترصدونه ، ولن يسامحوه على كتابته عنهم في « المستظهري » الى جانب باعث داخلي مستبطن فيه الى محاربة الباطنية وتكليف المستظهر اياه ، فقد ألمَّ به قلق ظهر اثره جلياً واضحاً في سلوكه فيما بعد » . وفسّر « ديورانت »[٣٠] :

« بأن كل ذلك دليل على انهيار قواه العقلية » .

وقال الغزالي عن نفسه : « فاعضل هذا الداء ودام قريباً من شهرين . انا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال حتى شفاني الله من ذلك المرض وعدت الى الصحة والاعتدال » .

وروى « ابن الجوزي » عن الغزالي : بأنه كان متشائماً ويخاف من ذكر الموت امامه ، وهذه علة ومرض تصيب الاعصاب الضعيفة التي تمركزت فيها الوساوس والتشاؤم .

من كل هذا نستخلص بأن الغزالي قد وقع في الشك مع خوف ناتج عما يتصوره من اخطار محدقة به ، وهذا الخطر الذي اشرنا اليه في الصفحات السابقة لم يكن فكرياً بل سياسياً .

ويرى الدكتور عمر فروخ : ان الغزالي كان مصاباً « بالكنظ والغنظ »[٣١] وهو مرض وراثي معناه هبوط في القوى الجسمانية والعقلية وقد ينتج اضطراباً نفسياً . ومن هنا كانت مواقف الغزالي مليئة بالتردد تجاه الفلاسفة وبراهينهم ، وكان مرض الغزالي يمتد من ثلاثة اشهر الى ستة اشهر وهو قابل للشفاء التام ، الموقت ، بيد ان اتسام المريض بالقلق والسويداء يجعله قابلاً للتوهم فيترجح بين الشك والاقتناع ، ولعل هذا هو الذي يؤكد ما نجده من متناقضات في كتبه ، وتكسرات في منحاه الفكري والروحي في الكتاب الواحد من كتبه ، وقد نجد اكثر من رأي .

أنا أخالف الدكتور عمر فروخ فيما اخترعه ، ولا ادري فيه اي وجه للصواب وخاصة تحديده لمرض الغزالي ، وقد كنت قد اعلنت أكثر من مرة بأني لا اعتمد ولا اثق بما كتبه الدكتور عمر فروخ في حقل الدراسات الفلسفية الاسلامية ، لأني اعتبره الممثل الأول لمدرسة التقليد والنقل والتعصب والخروج عن دائرة المنطق ، ومن الغرابة ان يبادر الى تحديد مرض الغزالي ويأتي باسم لم نسمع به من قبل .

لقد كنا ذكرنا ان مرض الغزالي هو « الخوف » وهذا ليس وراثياً ، وانه قابل للشفاء عندما ترتفع الاسباب وتزول ، والدليل على ذلك ان الغزالي اعطى احسن العطاءات الفكرية في دمشق عندما كان يتمتع بالحرية كاملة ، وعندما زالت أسباب الخوف والقلق ، وأعني بذلك في الفترة التي قضاها في دمشق .

ويقول ابن عساكر[٣٢] : « ولقد زرته ، وما كنت احدس في نفسي مع ما عهدته في سالف الزمان عليه من الاغترار بما رزق من البسط في النطق والخاطر والعبارة وطلب الجاه والعلو في المنزلة ... انه صار على الضد ، وتصفى عن تلك الكدورات ، وكنت اظن انه متلفع بجلباب التكلف منهم بما صار اليه فتحققت بعد التروي والتغير ... ان الأمر على خلاف

الظنون ، وان الرجل ادركته العناية الازلية فأفاق من بعد الجنون » . ويضيف ابن عساكر الى قوله : « ثم حكى انه فتح عليه باب من الخوف بحيث شغله عن كل شيء » . وجاء في كتاب السبكي : « لذلك نراه لم يكد ينتهي من حربه مع الفلاسفة ، حتى ولج حرباً أخرى مع الباطنية ، وقد ظهر لنا سجاله مع الفلاسفة ومثلما ساعدته الظروف الذهنية التقليدية في عصره ان يحارب الفلاسفة ، فقد ساعدته الظروف السياسية كلها ان يفضح افكار الباطنية لا بمحض إرادته بل بحسب ارادة عليا هي ارادة الخليفة ، فلم يخرج منها منتصراً كما اراد ، بل اتحد عليه عاملا المرض الفجائي واستشعاره بالخطر السياسي المحدق به بعد اعلانه الحرب على الباطنية .

وقد اشار السبكي ايضاً الى الخطر السياسي الذي احاط به في تلك الفترة ، ومن الجدير بالذكر ان اكثر المؤرخين الذي ارّخوا الغزالي لم يشيروا ابداً الى الخطر السياسي الذي احاط بحياته .

ومهما يكن من امر ... فان كافة الاشارات والوقائع تبدو ظاهرة في حياة الغزالي وفي مؤلفاته ، فاذا نحن برّأناه من المرض ، فلا يمكننا ان ننزع عنه صفة التشاؤم .. لقد كان ايضاً كما تؤكد المصادر يخاف من ذكر الموت ، ولا يريد لأحد من اصحابه ان يذكر الموت امامه ، وهذه صفة اصحاب الاعصاب الضعيفة عضوياً التي عصفت بها الوساوس والهواجس وجعلتها عرضة للتشاؤم والخوف .

اتوقف بعد هذا العرض الاستعراضي لحياة الغزالي ، لانتقل الى موضوع آخر ، وهو حياته الفكرية وعلومه وتصوفه والمدارس التي ينتسب اليها ، ويأتي ذلك بعد ان اشبعنا حياته العامة درساً ونقداً ولم نقصّر في مناقشة المصادر التاريخية ، ولا شك بأن القارىء الكريم سيجد اننا لم نترك شيئاً من حياته الا وتطرقنا إليه منذ ولادته حتى وفاته ، فعسى أن نكون قد قمنا بما يفرضه علينا الواجب ومبدأ البحث العلمي الذي يرتكز على العقل قبل كل شيء .

الغزالي وأنظمة الفكر في عصره

اما وقد فرغنا من الحديث عن عصر الغزالي التاريخي والسياسي ، وعن المراحل الحياتية التي قطعها هذا العالم الفقير المريض السيء الحظ ، فصار من الواجب علينا بعد ذلك كما قلنا الانتقال الى موضوع آخر وهو عصر الغزالي الفكري ، والمدارس الفكرية والانظمة العلمية التي كانت قائمة في اكثر من مكان في هذا العالم الاسلامي ... فنقول :

عاش الغزالي في القرن الرابع للهجرة ، وأدرك مطلع الخامس ، وهذا العصر لم يخرج عن كونه نسخة طبق الاصل عن العصر الذي سبقه ، او بلغة اصح هو امتداد للقرن الثالث الهجري بالنسبة للعلوم وللآداب ... وغير خافٍ ان ذلك العصر شهد بروز دعوات دينية عديدة ، وقيام مدارس وانظمة فكرية لم تلبث ان نزلت الى الساحة لخوض المعركة الكبرى ، وفي يد كل واحد من اعضائها منهاجاً مقرراً ومدروساً ويهدف الى الوصول لمرتبة التفوق والسبق في استقطاب الطلاب والدعاة الذين ستكون مهمتهم فيما بعد استقطاب الوزراء والامراء والحكام .

اجل ... كانت هنالك انظمة فكرية تتصارع وتخوض اعنف المعارك الكلامية واهمها النظام الفكري الاسماعيلي ومدارس المعتزلة والاشعرية والصوفية وغيرها من الجماعات التي تسلحت بالمنطق والكلام والحديث والآيات ، واتخذت من علومها سلاحاً للاقناع وقطع ألسنة الاعداء ، والتفوق في مضمار العلوم التي تقرِّب الطلاب وترضي الحاكمين .

انه من الصعوبة بمكان التحدث عن هذه المدارس الفكرية بالتفصيل ، واثرها في الحياة السياسية والدينية والاجتماعية ، لأن ذلك معناه تأليف كتاب مستقل عن هذا الموضوع ـ وهذا ما نفكر به الآن ـ ولكن لا بد لي من القول بأن المدرسة الاسماعيلية كانت في كافة المعارك التي خاضتها متفوقة وناجحة ... تقطف الثمار الناضجة ، وتجلس في قمة النصر .. اقول هذا دون تعصب او غاية واضعاً التاريخ « المتجرد » حكماً ورمزاً مبتعداً قدر الامكان عن بعض المؤرخين الذين عرفوا بعدائهم للاسماعيلية وتصميمهم على تشويه تاريخهم عن قصد .

وجاء الغزالي ليشهد هذا الصراع او ليشارك فيه ، ولكنه لم يهتد الى

الطريق مع كل اسف ، فضاع في مجاهل الحياة بسبب تعرضه لعوامل مضنية وقاسية . وهكذا عاش في فراغ لا يملك الجرأة للتعبير عما يعتقده ، ولا يستطيع ان يجابه الحكام الذين فرضوا عليه اتباع منهج معين ، وعندما اقول ذلك اؤكد بأنه لم يكن اشعرياً ولا صوفياً ، وانما مجموعة من العقائد المتناقضة التي تذهب في اعتقاداتها مذاهب شتى .

ومهما يكن من امر ... فلا بد من القول : بأن في تاريخ الفكر الاسلامي الزاخر بكل جديد ما يفيد بأن العالم الاسلامي في ذلك العصر كان منطبعاً بطابع العلم والفلسفة ، تطغي على دائرته الفكرية ومجتمعه الادبي دعوات جديدة وخلافات عقائدية عديدة ، وجدل كلامي لم يكن يتوقف عند حد من الحدود ، فتلك الخلافات كانت تخرج في اغلب الاوقات عن نطاق المناقشات الوجاهية في النوادي والمراكز العلمية لتتطور الى بيانات مستفيضة تبرز على صفحات الكتب والرسائل ثم لتتحول الى سلاح يستعمل في ميادين الدعاية كمادة للترغيب والاقناع واستقطاب المؤيدين والانصار . وكان اتباع هذه الانظمة يعبرون فيها عن الآراء والمناهج ومبادىء العقائد دون ان ينالهم اي خوف ، ومن حسن حظ العلماء ودعاة المدارس الفكرية ان الحرية في التعبير عن الآراء ، وعن علاقة الفلسفة بالدين ، ودور العلماء في البحث كانت مضمونة .

ولا بد لنا ونحن في صدد التحدث عن هذا الموضوع من الاشارة الى المناقشة التي حدثت بين « الرازيين » ابوبكر[٣٧] وأبو حاتم[٣٨] والتي دوِّنت تفاصيلها في كتاب « اعلام النبوءة » لأبي حاتم الرازي ، ومما تجدر الاشارة اليه ان ابا حاتم دافع في كتابه عن عقيدته الاسماعيلية ضد الالحاد ، وضد الطاعنين بالنبوءة ومنهم ابوبكر الرازي الذي كانت له آراء مغايرة ومضادة ، وقد اثبت الرازي ابو حاتم بأن عقيدته تقوم على اساس الاعتراف بأن النبوءة هي تولية الهية ، وانها المصدر الأول للامامة والمدة لها . فالامامة فرع منها وتأتي بعدها في مراتب عالم الدين ، ولا تتم واحدة منها الا بالاخرى ، فاذا ابطلنا واحدة كان علينا ابطال الثانية وهذا لا يجوز اطلاقاً ، لأن النبوءة من الوجهة الفلسفية هي درجة النطق واستحقاق الوحي وحد العقل الفعال .

ومما تجدر الاشارة اليه ان الرازي ابو حاتم هاجم ابابكر في اربع مسائل هي : الزمان والطبيعة والنفس والنبوءة ، فأثبت انه ضليع ايضاً

بعلم الطب الروحاني اضافة الى الطب الجسدي ، وقد كانت اقوال ابوبكر تنادي بالمساواة بين البشر ، ويرى ان الله لا يمكن ان يختار ويفضل بعضاً منهم لكي يعهد اليه برسالة نبوية تكون سبب الحروب . ومن الثابت ان « الكرماني »[٣٩] في رسالته « الاقوال الذهبية » وجّه النقد واللوم لأبي حاتم لاغفاله بعض الآراء في معرض رده .

ومن البيانات الدامغة ما قاله العلّامة « ابراهيم بيومي مدكور »[٤٠] حول هذا الموضوع :

« ودون ان نعرض لكل من خاضوا غمار التهجم على النبوءة نشير الى رجلين هما : احمد بن اسحق الراوندي ، ومحمد بن زكريا الرازي الطبيب .

اما الأول فشخصية غريبة للغاية ، وقد كتب كتباً ضد الاسلام منها : كتاب « فضيحة المعتزلة » في الرد على الجاحظ بكتابه « فضيلة المعتزلة » وله كتاب « الدامغ » الذي يعارض به القرآن ، وكتاب « الفرند » في الطعن على النبي « صلعم » وكتاب « الزمردة » في انكار الرسل وابطال رسالتهم ، والكتاب الاخير يعنينا بوجه خاص ، فانه يعطينا فكرة عن مسألة النبوة ، وقد بقي هذا الكتاب مجهولاً الى زمن قريب ، ويرجع الفضل في التعريف عنه الى صديقنا المسيو « كراوس » الذي اهتدى اليه في مخطوطة من المخطوطات الاسماعيلية وهي جزء من المجالس المؤيدية المنسوبة للمؤيد في الدين هبة الله بن ابي عمران الشيرازي داعي دعاة الاسماعيليين ايام الخليفة الفاطمي المستنصر بالله وتشمل المجالس المؤيدية في جملتها (٨٠٠) محاضرة القيت في دار العلم بالقاهرة في منتصف القرن الخامس الهجري ودرست فيها المشاكل الاسلامية على اختلافها .

وفي المجلس السابع عشر من المائة الخامسة الى المجلس الثاني والعشرين ، يعرض المؤلف لأقوال « الراوندي » في الطعن على النبوة ويعقب عليها بالنقض والرد ، وهذه المجالس الستة هي التي نشرها المسيو كراوس وترجمها الى الألمانية .

وقد تولى الاسماعيلية مناقشتها واظهار ما فيها من خطأ ومغالطة ، وقد صيغت هذه المناقشة في قالب جذاب ، وان تكن مسجعة سجعاً ثقيلاً احياناً ، وفيها دفاع وردود عقلية هي اثر من آثار الثقافة الاسماعيلية

المترامية الاطراف . »

ويـزيد الدكتور « ابراهيم بيومي مدكور »[41] على اقواله هذه التي نشرهـا في مجلة الرســالة المصريــة ما يؤيد الحقائق عن الاسماعيلية ودفــاعهم عن النبـوءة ضد الملحدين والكافرين ، في حين وقفت الفرق الاسلامية الاخرى موقف المتفرج وهكذا فعل اذناب العباسيين الذين انحصرت اعمالهم بتشويه الحقائق وابتداع الاكاذيب ، واحداث الفرقة بين المسلمين ... يقول الدكتور مدكور :

« اما الشخصية الثانية فهي : « ابو بكر محمد بن زكريا الرازي » الذي انكر القائلين بالتوفيق بين الفلسفة والدين ، وقد كتب كتابين عدَّهما البــيروني من الكفــريــات وهمــا : « مخــاريق الانبيــاء »» و « حيــل المتنبئــين » ... ويقــول ماسينيــون : ان اثــر الكتاب الاول تعدى الى الغرب .. اما الثاني فقد وصلنا منه فقرات عن طريق غير مباشر في كتاب « اعلام النبوءة » لأبي حاتم الرازي الذي هو اكبر دعاة الاسماعيلية الذين ابلوا بلاءً حسناً في طبرستان وأذربيجان في اوائل القرن الرابع للهجـرة ، وقـد كان معـاصراً ومواطناً للرازي الطبيب ، ودارت بينهما مناقشات حادة ومتعددة حضرها بعد العلماء والرؤساء السياسيين ، وقد شاء ابو حاتم ان يدوّن هذه المناقشات في كتاب اعلام النبوءة .

وحقاً انه لا يصرح في هذا الكتاب باسم الرازي ، ويكتفي بان يوجه نقده الى من سماه الملحد ، وان حميد الدين الكرماني زعيم الدعاة في عصر الحاكم بامر الله يصرح في كتاب « الاقوال الذهبية » بان مناقشات في النبوءة والمناسك الشرعية دارت بين الرازي والشيخ ابي حاتم بجزيرة « الري » ايام مرداويج وفي حضرته ... والكرماني حجة في هذا الباب ، فانه اعرف ما يكون باخبار الاسماعيليين زملائه وبمواقف الرازي وآرائه التي أخذ على عاتقه ان ينقض بعضها في كتابه الآنف الذكر . »

ويقول :

« ظننا اننا في غنى عن ان نشير الى ان اقوال الرازي ابي بكر تمثل اعنف حملة وجهت الى الدين والنبوءة طوال القرون الوسطى ، بيد ان ابا حاتم استطاع ان يقابل هذه الحملة وجهاً الى وجه ويخذلها ، وان يهدم هذه الفتنــة من اســاسهــا ، وفي كتابه اعلام النبوءة صفحات تفيض

افحاماً واعجازاً ومناقشات تسد على المكابرين والمعاندين سبل التخلص والفـرار ، وحبـذا لو نشر هذا الكتـاب في جملته ، فضم آية الى آيات الاسماعيلية الكثيرة ، وأثراً الى آثارهم العلمية النفيسة ، وأبو حاتم لا يتكلم باسم الاسماعيلية وحدهم بل باسم الاسلام والعقل والانسانية جمعاء ، ذلك لأن مشكلة النبوءة لا تتصل بفرقة دون فرقة ، ولا تعني طائفة متفردة من طوائف الاسلام » .

ان المنـاقشات الكلامية والجدل كان السلاح الوحيد الذي تشهره الانـظمـة والمدارس الفكرية الاسلامية على بعضها البعض كما قلنا ، وكانت الاسماعيلية صاحبة نظام صال وجال على مسرح العالم الاسلامي حاملاً معه سلاح العلم والفلسفة ، وانه لمن الغريب ان هذا النظام لم يكد ينتهي من جدله الكلامي مع الفرق الاخرى حتى يخوض معركة اخرى ، ولكن من نوع جديد ، انها معركة الكلام بين علمائها انفسهم ... وهذا دليـل واضـح على الحـرية الفكرية التي كانت تسود المجتمع الفكري الاسمـاعيـلي ، وتعمل على فكاكه من الالتزام الذي كان يكبل العلماء الآخرين بالقيود الثقيلة ويضرب نطاقاً كثيفاً حول مؤلفاتهم وأقوالهم . ولا بد لنا من العودة الى موضوع الحرية الفكرية التي كانت سائدة في تلك الفترة :

كان الداعي الاسماعيلي « النسفي »[٤٢] وضع كتاباً في الفلسفة اسمه « المحصـول »[٤٣] وقـد اعتبر اساساً لكافة الكتب التي جاءت بعده ، وعنـدمـا جاء الرازي ابو حاتم ، وجد في الكتاب ثغرات واراء لا تتفق وحقيقة معتقداته ، فوضع كتاباً سمّاه « الاصلاح »[٤٤] وقد اصلح فيه آراء النسفي التي وردت في المحصول ، ولكن مبادرته تلك لم يرضَ عنها الداعي الاسماعيلي « السجستاني »[٤٥] فوضع كتاباً انتصر فيه للنسفي وسمّـاه « النصرة »[٤٦] وعندما جاء « الكرماني » وضع كتابه المشهور « الريـاض »[٤٧] وفيـه استعـرض آراء زمـلائـه الثلاثة ونقدهم نقداً موضوعياً دون ان يظهر التحيز لأحد منهم .

ان الدعـاة الاربعة من الاسماعيليين الذين كانوا يتمتعون بحرية تسمح لهم في كافة الاحوال التوجه نحو ابواب الاجتهاد والعلم مع اتباع سبل المحافظة على المبادىء الاساسية والأصل للدين ، ومن الواضح ان

هذا النقاش العلمي المنفتح عبر الكتب والنشرات يعطينا درساً وبرهاناً عن تلك الحرية التي كانت سائدة في تلك الأزمنة ، وعن انفتاح العلماء على بعضهم وتقبلهم البناء الذي كثيراً ما أفاد طلّاب المعرفة الاسلاميين .

بين الفلسفة والدين

مما يدعو الى الاستغراب والاسف ، اننا ما زلنا حتى اليوم نضع الفلاسفة في صف علماء الدين ... اقول هذا وانا اقرأ المقالات التي كتبها بعض الباحثين عن الغزالي باعتباره من الفلاسفة الاسلاميين الكبار ... ان هذا الحديث مدعاة الى التعجب ، وكأني بهؤلاء لم يفهموا حتى الآن معنى كلمة فيلسوف ، او انهم لم يكلفوا انفسهم قراءة مؤلفات الغزالي وتدقيقها ومقابلتها ، وقد يكونوا قد قرأوها دون أن يفهموا مقاصد الغزالي بالنسبة لكتب الفلاسفة الاسلاميين ، واني عندما اوجه الكلام الى هؤلاء اذكرهم وأطلب اليهم ان يحافظوا على هدوئهم ، لأن امثالهم كثيرين في هذا العالم الطافح بالعجائب والغرائب ... بأسف شديد اقول : ان هؤلاء المطبلين كثيراً ما يبرزوا في ظروف غامضة وأوقات مناسبة على المسارح فيحرزون الانتصارات الكبرى في دعاويهم وأقوالهم ، ويصبح لهم شأن كبير في عالم البحث والعلم .

ان كلمة « فلسفة » معناها الحكمة او معرفة الاشياء بمبادئها وعللها الاولى ، والكلمة يونانية مركبة في الاصل من « فيليا » اي المحبة ومن « صوفيا » اي الحكمة ، فيكون معناها « محبة الحكمة » او الوصول الى حقائق الموجودات ، ثم القول والعمل بما يوافق العلم ، وقد قسموها الى اربعة اقسام :

الأول : الرياضيات ويتفرع منها العدد والهندسة والنجوم والموسيقى .

الثاني : المنطقيات ويتفرع منها الشعر والخطابة والمناظرة والبرهان .

الثالث : الطبيعيات وهي المبادىء الجسمانية وعلم السماء والعالم والكون والفساد والمعادن والنبات والحيوان .

الرابع : وهي معرفة المبدعات والروحانيات والفيض والانبثاق والجواهر البسيطة العقلية وعلم النفسيات ـ اي معرفة النفوس والارواح السارية في الاجسام الفلكية والطبيعية وعلم السياسة وما يتفرع منها من السياسة النبوية والملكية والعامية والخاصية والذاتية وعلم الكلام .

ولا بد لي وانا في صدد التحدث عن الفلسفة من التذكير بأني قد

اطلعت على حديث لأحد كبار المستشرقين[٤٨] يقول فيه :

ان الفلسفة الاسلامية اصيبت بما يشبه العقم في المشرق منذ عهد الغـزالي ، وظلت على عقمهـا حتى اتى « نصـير الدين الطوسي »[٤٩] فأخرجها من ركودها العميق الذي ظل متحكماً فيها حتى منتصف القرن السادس للهجرة .

هذه حقيقـة يجب ان تستقـر في اذهـان كافـة الباحثين والمهتمين بالفلسفة الاسلامية . فعصر الغزالي لم يكن عصر فلاسفة ، وقد تكون هناك علل وأسباب كثيرة ، اهمها ان الحاكمين شنوا على الفلسفة حرباً شعواء وسلطوا عليها سيوف الاعدام ، لأنهم رأوا فيها تحرراً قد يطيح بعروشهم وقواعد حكمهم .

ان الفلسفة الاسلامية التي شقت طريقها الى العقول في عهد مبكر من ظهور الاسلام .. هذه الفلسفة كان مقدراً لها ان تخضع الى تقلبات الجو وهبوب اعاصير الازمنة القديمة العاتية ، ومن الواضح انها ما زالت حتى الآن تتعـرض الى التعليقـات والاجتهـادات والدراسات من قبل الباحثين والدارسين الذين ما زالوا يختلفون في التفسير والتأويل ومعاني الرموز والمغمضات ، فهذه الافكار والذخائر لم تهمل جانباً من الجوانب بل تعرضت الى شروح مختلفة واضافات وتفسيرات مغايرة ومتباينة ، وقد ثبت ان هذه الفلسفة لم تكن ترتكز على قاعدة واحدة ، او تسير على نهج واحد ، بل كانت ذات فروع عديدة وأهداف متباعدة لا تتفق في النهج والهدف ، على ان اهم ما كان يدور على الساحة العلمية فينحصر بين فريقين :

فريق يرى ان الفلسفة يجب ان تكون بمنجاة من قيود الدين ، او بلغة اصح جعل الدين خاضعاً لها ، ويستمد منها في كافة الأحوال .

وفريق يرى ويعمل لابعاد الفلسفة كلياً لأنها تفسد الدين على حد زعمه ، وليس غريباً ان تستمر الحرب بين الفريقين المتصارعين اللذين تسلحا بسلاح الجدل والكلام للذود عن الحياض والافكار والعقيدة التي يدينان بها ... ومهما يكن من امر ... فان الغزالي كان مفكراً دينيّاً من طراز عالٍ لا شك بذلك ولا ريب ، ومناقشاً متكلماً قوي الحجة اراد ان يجعل من الدين مادة او قاعدة تسيطر على كل ما عداها من العلوم بما فيه الفلسفة ، وهذا النهج الذي كان سائداً في تلك الفترة سار عليه علماء

او رجال دين لا علاقة لهم ولا ينتسبون الى الفلسفة لا من قريب او بعيد . فالفيلسوف هو الذي شرب من ينبوع الحكمة ، بل هو الذي وصل الى درجة التفوق والأخذ بكافة العلوم السائدة في عصره بالاضافة الى موسوعيته واكاديميته .. ونستطيع ان نعتبر « اخوان الصفاء »[٥٠] و « الفارابي »[٥١] و « ابن رشد »[٥٢] و « البيروني »[٥٣] و « الكندي »[٥٤] و « ابن سينا »[٥٥] و « نصير الدين الطوسي » من اعلام الفلسفة الاسلاميين لأنهم تفوقوا في كافة العلوم ، ولم يقتصر نشاطهم على مادة واحدة . فابن سينا كان اديباً وشاعراً وعالم لغة وكاتب قصة ورساماً وموسيقاراً وسياسياً وعالم نجوم وفلك وجبر وهندسة ورياضيات .. ومن الجدير بالذكر ان الذين ذكرناهم لا يقلون عنه ، فكيف نضع الغزالي في صفهم ؟ وهل من الانصاف في شيء ان نقرنه بابن سينا او الفارابي او الطوسي ؟

ان الصراع بين الفلاسفة من جهة ، والمتكلمين من جهة اخرى بدأ منذ عهد الغزالي ، وقد استمر هذا الصراع حتى عهد « فخر الدين الرازي »[٥٦] و « نصير الدين الطوسي » ... لكننا رأينا في نهاية المطاف نوعاً من التقارب من جانب واحد دون اي تفاعل ، وعلى سبيل المثال نقول : ان مباحث الغزالي التي اعتبرها بعضهم فلسفية لم تكن سوى اطروحات كلامية استهدفت التغطية على الفلسفة وتحويلها الى ما يسمى فلسفة دينية بحتة .

فعلم الكلام ربما اندمج في ذلك العصر من طرف واحد بالفلسفة ، او بلغة اصح ربما توجه في اتجاهها لأن مباحث المتكلمين ظلت بالرغم من تشبعها بالروح الفلسفية تأخذ منهجاً مستقلاً عن الفلسفة بوجه العموم . ويبدو انها لم تستطع استيعاب علم الكلام تماماً بالرغم من ادخال المنطق في مناهج المتكلمين ... وعلى العموم فان علم الكلام لم يخرج عن كونه مجموعة ابحاث وتفسيرات وشروح تدور كلها حول قضايا الدين . فمعنى الكلام هو كلام الله ذهاباً مع الايمان بان ما ورد في الكتب السماوية انما هو كلام الله ، والمسلمون يعتقدون ان الكتب السماوية منزلة من عند الله . فعلم الكلام قد تكون له نظريات فلسفية يعتمدها اتباعه ومعارضوه ، ولكن الحقيقة تأبى الا ان تؤكد بأنه لا يخرج عن كونه شرح وتفسير للآيات والسور القرآنية التي كانت تردد في

المساجد والنوادي .. واخيراً : تطور هذا العلم الى ان اصبح علماً واضح المعالم يتجادل فيه الناس عبر الكتب .

ومهما يكن من امر ... فتعتبر « المعتزلة » و « الاشعرية » من ابرز الفرق الكلامية التي كان لها اكبر الاثر في حياة العامة وتفكيرهم وذلك على اسس من الفلسفة .

ومما لا ريب فيه ... ان الغزالي كان ممثلاً للتيار الديني المضاد للفلسفة ، وعندما اعطى رأيه بالفلاسفة ... قال عنهم انهم يمثلون الكفر والالحاد ، ولم يستثن القدماء أو المحدثين ، الاواخر والأوائل ، ثم قسمهم الى ثلاثة اصنأف :

الأول : الدهريين وهم الذين جحدوا الله .

الثاني : الطبيعيين وهم الذين آمنوا بالله ، غير انهم انكروا اليوم الآخر وخلود النفس .

الثالث : الالهيين وهم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ، ولكنهم اتوا بعقائد وبدع كفروا بها ، ولا يجادل الدهريين والطبيعيين ، لأنهم زنادقة ولا جدوى من جدالهم ومناقشتهم . اما الالهيون فبعض علومهم صحيحة كالرياضيات والمنطق والسياسة والاخلاق ، وفي كتاب « تهافت الفلاسفة » يرد فيه على اكثر القضايا التي عرض لها الفلاسفة ويكفرهم لأنهم يقولون على حدّ قوله : « بان الله يعلم بالكليات ولا يعلم بالجزئيات » كما انتقد اعتقادهم القائل بِقِدَم العالم وفي مبدأ فيض العقول ، وقد غاب عنه ما في هذه المبادىء من الدقة والعمق ، ومن الواضح انه كان يعبر عن الاشعرية عندما تطرق لمبدأ « العلّية » ولمبدأ ابن سينا الذي يبني الممكنات التي لا قدرة لها على الوجود بذاتها ، وقد ردّ عليه ابن رشد بقوله : « ان الفلاسفة يرون ان الله يعلمها بعلم غير مجانس لعلمنا بها ... ان علمنا معلول للمعلوم به فهو محدث بحدوثه ومتغير بتغيره بينما علم الله علة للمعلوم ، ومن شبّه العلمين احدهما بالآخر جعل ذات العلمين المتقابلين وخواصها واحدة ... وهذا غاية الجهل .

اجل ... لقد هاجم الغزالي الفلاسفة وقسمهم الى فئات في كتابه « تهافت الفلاسفة » ونقض آراء فلاسفة اليونان وفلاسفة العرب الذين اخذوا عن اليونان امثال الفارابي وابن سينا ، وقد راجع مجموع

المسائل التي بحثوا فيها الى عشرين مسألة اهمها قدم العالم وحشر الاجساد ونظرية السببية ، وقد ذكرنا ان ابن راشد ردَّ عليه في كتابه « تهافت التهافت » فسخّف اقواله وأحبط مساعيه .

في الواقع .. لم يكن هجوم الغزالي موضوعيا لأنه لم يجد ثغرة يدخل منها الى حرم الفلسفة سوى الدين ، وكأني به اراد ان يأخذ ثقة الاكثرية من العلماء الاسلاميين الذين كانوا في حرب شعواء مع الفلاسفة في ذلك العصر الذي كان خالياً من الفلاسفة ، فبعد ابن سينا لم نسمع بفيلسوف اسلامي اجمعت الناس على اعتباره من الفلاسفة ، سوى « نصير الدين الطوسي » . اما اولئك الذين توهموا بأنهم فلاسفة او الذين اطلق عليهم هذا الاسم جزافاً فلم يكونوا من الفلسفة بشيء ، وأنه يجب اعتبارهم من علماء الكلام او رجال الفقه والدين لا أكثر ولا اقل .

ومهما يكن من امر ... فان الغزالي كان يسعى الى التجديد بالبيِّنة الدينية ، غير ان تلك المحاولات لم يكتب لها النجاح امام التيارات والعلوم التي كانت تنتشر في مدارس الفلاسفة ... وعلى العموم فاننا عندما نقول ان الغزالي لم يكن صاحب مكانة في شؤون المعرفة ، فلا نلبث ان نعود لتصحيح الخطأ والقول : بأنه كان من اكابر المفكرين الذين عاشوا مراحل القلق والشكوك والمس والضياع وفقدان الأمل بكل ما حوله ... ومن الجلي انه كان يخفي في داخله آراء وآراء لم يكن يملك الجرأة للافصاح عنها ، ويبدو انه آثر ان يدفنها معه ، وكل هذا سببه الوسط الذي عاش فيه ، والذي حتّم عليه الخضوع مرغماً للتيار العنيف الذي كان يفرض عليه سلوك سبيل لم يكن يرغب في سلوكه .

انني عندما انفي عن الغزالي صفة الفيلسوف ، اؤكد بأنه كان يحن للفلسفة ، وأذهب الى ابعد من ذلك بأنه لولا ظروفه الحياتية التي عصفت به لكان اصبح فيلسوفاً مرموقاً ، ولكن ماذا يستطيع ان يفعل والحاجة او الفاقة رمته في احضان ملوك وحكام ورجال دين حرموا عليه التكلم الا بما يرضيهم ويسيء الى اعدائهم ... يدفعني الى هذا القول بأن قارىء كتاب « احياء علوم الدين »[٥٧] يشم منه نفحات رسائل اخوان الصفاء ... وهذا معناه ان الغزالي كان يحنّ للفلاسفة وللمدرسة الاسماعيلية التي درس فيها المبادىء ونال منها « التعليقة » ولكن ماذا عليه ان يفعل وهو في حالة تفرض عليه « التقية »[٥٨] والا فليس امامه الا

الهلاك .

ويعجبني هذا القــول للمستشرق كارل بروكلمـــان الذي يؤيـد ما اقوله[٥٩] حيث جاء فيه :« وليس بالامكان ان ننكر تأثره بالاسماعيلية « الباطنية » الذين قادوه عندما تعرض لدرسهم ونقدهم الى الاستبحار في عالم الفلسفة » .

وجاء أيضاً[٦٠] : « ونستطيع ان نستخلص بسهولة بعد درس كتبه الكلامية ومقارنتها بكتبه المضنونة ، الى ان الغزالي عندما تعرض لنقد الفلاسفة والباطنية غيره عندما كتب فلسفته الخاصة ثم غيره وهو يرفض كل شيء ليتصوف ، واذا كان يبدو من خلال كتبه ضد الباطنية جدلياً فهو في كتابه الذي رد فيه على الفلاسفة سوفسطائياً تبدو روح المناقضة على كل منحى سلكه معهم ، واذا جوَّزنا لأنفسنا ان نعتبره مبتكراً فلأنه كان يسعى وقد يكون عن غير قصد الى تقريب الفلسفة من قواعد الدين .

أما هجومه على الباطنية الاسماعيلية فيمكن تلخيصه بأنه أخذ عليهم قولهم بالمعلم المعصــوم وحجتهم ان الآراء المتبـاينـة واختلاف الناس الدائم ووجود العقول المتنازعة تتطلب المعلم والتعليم ، ويرى الغزالي ان حجتهم هنـا ضعيفة ورأيهم غير صحيح ، وقد قدر بأنه لا يرى هناك حاجة الى امام معصوم لفض الخلاف والنزاع لأن الخلاف يمكن تسويته بواسطة المنطق ... ويتفرع الخلاف عندما يشترك مع « الباقلاني » و « البغـدادي » بانتقاد الباطنية الاسماعيلية ، وتوجيه بعض اللوم الى علمائها ودعاتها المنتشرين في كل مكان من العالم الاسلامي وخاصة الى « الكرماني » الذي وصفوه بأنه من المعطلة ، وذلك لأنه ينفي الصفات عن الباري عز وجل ، ولكن الكرماني يجيب : بأن التعطيل الصريح انما يكون بأن يتوجه حرف النفي « لا » نحو الهوية قصداً كأن يقال مثلاً « لا هو » وهــو « لا اله » ، وليس هذا ما يقول به اذ النفي عنده هي نفي الصفات وتوجيه فعل النفي « لا » نحو الصفات دون الهوية .. ويضيف الكرماني متسائلاً ... فان قال قائل فمن الموصوف بصفات الذات ومن الموصوف بصفات الفعل ... قلنا له : الذي لا جوهر له فهو القادر الذي قدر لا من شيء والحي الذي احيا لا من شيء بذاته ، ولو لم يكن كذلك لكان يحتاج الى علم به والى قدرة والى حياة والى جوهر ، وانما الموصوف بصفات الفعل هو النفس لأنها اخرجت جميع ما كان من القوة الى حد

الفعل ... اذن فهي عالمة بعلم وقادرة بقدرة ومؤيدة بارادة وان علمها وقدرتها وارادتها هي القوة التي استفاد منها العقل ، وبمعنى آخر فان كل ما هو دون العقل ذو علم ... اما العليم الذي ليس هو بذي علم فهو العقل ، واما الباري فلا يجوز ان يقال له فوق او تحت او دون او غير ذلك .

ويذهب الكرماني ليوضح للغزالي : بأن بين الموجودات تضاداً وتنافراً ومحاولة من جانب بعضها لمحو البعض الآخر ، فهذه الموجودات كائنة برغم هذا التنافر وهذا التضاد ، كما لا يفقد شيئاً منها في وجوب الضد ، وانما هي تحت الوجود محفوظة ، وهذه النظرية مطابقة لنظرية الفارابي التي يقول فيها :

« حفظ ادامة وجود الشيء الذي ليس وجوداً لذاته ادامة لا تتصل بشيء من العلل غير ذات المبدع » ، وينتقل الكرماني لينفي « الأيسية » و « الليسية » والصفات عن الباري نفياً مطلقاً ، كما افرد اقوالاً طويلة لمذهب الدعوة في التوحيد ووصف الاصلين الابداع والانبعاث ، وعرَّض بالقائلين بالعلو في الامامة وتحدث عن النبوءة والامامة وخصائص كل منهما باسلوب منطقي علمي جذاب ، ثم جمع الاصلين الأولين العقل الفعال والنفس الكلية مع نظام العقول العشرة التي ايدها الفارابي واخوان الصفاء وابن سينا وغيرهم من اقطاب الفلسفة ، وقابل بين عالم الابداع وعالم العقول وبين العالم الجرماني او عالم الافلاك والكواكب وبين العالم الجسماني الكائن من دون فلك القمر وبين عالم الدين او عالم النبؤآت ثم رسم المخططات والدوائر الجغرافية والفلكية والارضية والجسدية ، وطبق المثلات على الممثولات بأسلوب ساحر ، وعن الامامة قال : انها لم تكن يوماً من الايام الا القيادة الرئيسية للدولة وللدين ، فهي نظام من أنظمة الحكم أو قيادة روحية مهمتها الحفاظ على الشريعة والدعوة ، فالامام ليس من الناحية الجسدية الا كغيره من ابناء البشر يتعرض لما يتعرضون اليه من آفات وأمراض ، وحاشاه ان يصل الى مرتبة الالوهية التي هي من اختصاص المبدع الحق ، وان القول بذلك غلو وضلال .

ولا بد من التذكير بأن الداعي الاسماعيلي اليمني « علي بن الوليد » من القرن السادس للهجرة ردّ تهم الغزالي وفند اقواله في كتابه « دافع

الباطل » ولكنه كان في دفاعه قاسياً وعاطفياً لدرجة انه خرج في بعض الأحيان عن حدود المنطق والعلم .

ونعود الى ما كنا في صدده ... يرى احمد أمين : ان من آثار اخوان الصفاء في الغزالي تأليفه كتاب « احياء علوم الدين » على نفس الطريقة « المهدي والمهدوية » فللرسائل التي ألّفوها اثر واضح في الاحياء .

ويقول المستشرق هنري كوربان : « إن هجوم الغزالي على الاسماعيلية كان بدافع السياسة ، ولا يفسر عن اي معنى يرتبط بالدين » .

ويقول ابن الجوزي : فالغزالي كان يتكلم بشكل يوحي انه كلام من جنس كلام الباطنية ، ولا ينسى الغزالي ـ وهذا امر غريب ـ ان يضع في منزلة الانبياء مجموعتين هما : الأولياء والعقلاء فيربطهما بالوحي ربطاً رمزياً ، وهنا يقرب الغزالي من قول الاسماعيلية بعدم انقطاع الوحي ، لأن العقل الكلي تجلى ويتجلى للافراد اي « للائمة » ، وكذلك يلاحظ قرب هذه الاقوال ، وان ابتعدت الصيغ واختلفت الالفاظ من فكرة الفارابي وغيره من فلاسفة الاسلام في مسألة افاضة العقل الفعال الالهامات العالية على بعض العقول التي وصلت الى مرحلة معينة من مراحل العقل الانساني الثلاث[٦١] .

وجاء :[٦٢]

نستطيع ان نقرر بكل اطمئنان : ان الغزالي لم يهجر الفلسفة الا ليتحول الى فلسفة اخرى . لقد هجر فلسفة افلوطين ، والافلاطونية المحدثة بعامة ، وظل لهذه الاخيرة مخلصاً حتى آخر عمره .

ففي كتاب « احياء علوم الدين » كان وما يزال يثير نزعة عميقة الى محاسبة النفس بروح باطنية طاعنة الغور في نفس الغزالي ، ولعل الاستيطان هو تأثره بمنهج اخوان الصفاء حتى بدأ كلامه في كثير من الاحيان وكأنه جنس كلام الباطنية ، بل انه لم يتخلص فيه بعد من آثار الفلسفة التي اقتحمها اقتحاماً حتى تأصلت فيه .

لقد ذكرنا ان الغزالي هاجم الفلاسفة في كتاب « التهافت » وأرجح ان هجومه هذا انبعث من مبدأ اقل ما يقال عنه ، انه جاء لارضاء من يعيش في ظلهم من الأشاعرة ، فذهب إلى أن الدين يجب أن يبقى فوق الفلسفة يستخدمها حسب اهدافه ومراميه ، اوبلغة اصح ان الدين هو الفلسفة

بمعناها الصحيح ، وقد يكون قد جاء في كتابه احياء علوم الدين ليظهر نفسه على غير ما كانت عليه امس ، ولكن بعد فوات الأوان .. فهنا نشتمُّ روائح الفلسفة تفوح من كل صفحة من صفحات كتابه هذا ، بينما في كتب الامس كالتهافت مثلاً لا نرى اي اثر للفلسفة ، وكل ما نراه هجوماً عليها وعلى من يقولون بها .. فماذا نستطيع ان نقول عن هذا التناقض ؟

من الواضح ان الغزالي كتب كتابه « احياء علوم الدين » في دمشق ... وفي دمشق كان يتمتع بحرية شخصية مطلقة ، فلا خلفاء ولا وزراء ولا علماء يلقون بأوامرهم عليه ، ويحصون انفاسه ويهددونه من طرف خفي باتباع طريق معين ، وكل هذا يجعلنا نقول : ان الغزالي في دمشق هو غير الغزالي في طوس او بغداد . ففي بغداد كان فقيهاً متكلماً وعالماً اصولياً دؤوباً على الصلاة والانقطاع للعبادة وقد يكون « أشعرياً » بالظاهر . اما في دمشق فكان فيلسوفاً عميقاً متحرراً يكتم الكثير من عقائده « تقية » ولكنه لا يخفي عن كل الناس بأنه التلميذ النجيب في مدرسة اخوان الصفاء .

لقد استغربت امراً عرض لي وأنا أدرس الغزالي ... ولا بد لي من اضافة استغراب آخر وهو لماذا اغفل التاريخ ذكر الاسباب التي اهابت بالغزالي لترك دمشق ، والذهاب الى القدس حيث الصليبيين يسيطرون ... فهل تلقى تهديداً او اشعر بخطر يتهدد حياته ، ام ان مرض الخوف استيقظ في نفسه وعاد ليصور له المخاطر من بقائه في دمشق ؟ وهناك ناحية اخرى تدعو الى الاستغراب ... وهي لماذا ذهب من القدس الى الاسكندرية ، وهذه المدينة كانت واقعة تحت حكم الفاطميين « المستعليين » اعداء الاسماعيليين النزاريين في « ألموت » ، فهل اراد الاستظلال بظلهم اتقاءً لشر اعدائهم الاسماعيليين النزاريين الشرقيين ، ام ان ذهابه كان عرضاً ، وانه كان في طريقه الى مراكش للالتحاق بيوسف بن تاشفين ؟

ان هذا الغموض ... بل هذا الوضع المضطرب في حياة الغزالي يدعونا الى القول : بأنه قد يكون من الخطأ الحكم على هذا العالم الذي لم يعرف الأمن ولا الاستقرار ، لقد كان طريد المقادير لا يستقر في مكان حتى يشعر أن هناك عيون تلاحقه وتخطط لقتله ... من هنا فلا يمكن اعتبار مؤلفاته انها صادرة عن عالم يمتلك قواه العقلية امتلاكاً تاماً معبراً عن

الدافع والاهداف ، وكنا ذكرنا ان آراءه تناقض بعضها البعض حتى في الصفحة الواحدة .

لقد وضحنا العلل والاسباب التي عرضت له في مطلع حياته ، فجعلت منه انساناً يعيش تحت كنف مرض نفساني كان يحصي عليه انفاسه ويسد عليه ابواب الهدوء والاستقرار ، ويجعله خائفاً متردداً يكتب دون وعي وادراك ... فهل بعد هذا يصح ان نقول عنه انه من الفلاسفة او من العلماء او من الفقهاء او من المتكلمين ؟

انني ما زلت على اعتقادي بأن المرض الذي اصابه لم يتولد الا عندما فاء الى كنف « الجويني » ولازمه ، فالجويني لم يكن هدف الغزالي ، واعتقد انه لم يكن يؤمن بعقيدته ، ولكنه اضطر لمسايرته والاقامة في ظله والتظاهر بأنه من تلاميذه ومن اتباعه ، وكل هذا خوفاً من الفقر وحياة التشرد التي ذاق منها الامرَّين .

لقد مرَّ معنا ان الغزالي كان ملازماً للجويني ، وانه تلقى العلوم عليه دونما رغبة وانما اضطراراً والجويني كان من « المعتزلة »[٦٣] ثم اعتزلها واصبح « اشعرياً »[٦٤] متحمساً مدافعاً ، ومن الطبيعي ان يتخذ خطة هجومية ضد الجماعة التي اختلف معها ،لهذا فان تلميذه الغزالي عندما هاجمهم كان قاسياً في هجومه ارضاءً لمعلمه الجويني ، فقد ساوى بينهم وبين « القدرية »[٦٥] وانتقد آراءهم في مسألة القبح والحسن ، وفي مبادىء العدل والتوحيد والوعد والوعيد الخ .. وفي هذا دليل دامغ على ان الغزالي كان مضطراً وملزماً ان يتبنى آراء معلمه ، ويسير على نفس المخطط الذي رسمه دون ان يتمكن من الافلات من الشرك المنصوب حوله ، وهذا ما سبب له عذاب الضمير بالاضافة الى عدم التوازن في تفكيره وفي عقله الذي اصبح مقراً للهواجس السوداء .

قلنا : ان الغزالي كتب وهو في دمشق كتاب « احياء علوم الدين » وهذا الكتاب حسب رأي الباحثين والدارسين زبدة كتب الغزالي لأنه عبّر فيه عن عقيدته تعبيراً كاملاً ، وقد ارضى العلماء المنصفين واستحق مديحهم ، واننا نرى الباحث الدكتور فيليب حتي يدرجه ضمن الكتب العقلية ، كما ان بعضهم ذكروا بأنه موسوعة تطفح بنفحات فلسفية منعشة خاصة عندما تدافع عن الاسلام ضد المدنيات الزائفة والمذاهب المحدثة التي تقوم على العبث في الدين ومقاومة الخير .. هذا ... وفي

الكتـاب مواعـظ وافكار تثير الاهتمام وتحمل القارىء الى عالم اخوان الصفاء الزاخر بالعلوم والفنون والآداب ، وقد ثبت ان الغزالي ظهر وكأنه التلميذ الروحي في مدرسة اخوان الصفاء يقول قولهم ويتغنى بافكارهم ويستعمـل تعابيرهم وأساليبهم وخاصة في موضوع التربية والتعليم . فالغزالي في هذا المجال اجاد في تعابيره وعطاءاته ، وأضاف آراء علمية جديدة جديرة بالتنويه ، ومن الانصاف الاعتراف بقيمتها العلمية .

قد يكـون من الصعـوبة بمكان الدخول في التفصيلات للمواضيع كلها .. فنحن هنا نشير اشارات عابرة للتذكير دون ان نطيل الحديث ، لأن في الاطالة ملل قد يضيع على القارىء الثمرة وسياق الحديث .

ولا بد من تكرار ما سبق ان قلناه .. ان الغزالي في كتابه « احياء علوم الدين » قد وضـع مجمـوعتين في منزلة الانبياء هما الأولياء والعقلاء فربطهما بالوحي ربطاً رمزياً ، وهذا القول يذكر بكلام الاسماعيلية الذي يؤكد بعدم انقطاع الوحي ، لأن العقل الكلي تجلّى ويتجلّى للافراد اي « للائمة » وغيرهم .. ومن الملاحظ ان هذه الاقوال وان ابتعدت صيغها ، واختلفت ألفاظها ، فانها تبقى قريبة من افكار الفارابي وغيره من فلاسفة الاسلام في مسألة افاضة العقل الفعَّال ، والالهامات على بعض العقول التي وصلت الى مرحلة معينة من مراحل العقول .

(٢٢) روى ذلك الذهبي .. ولكن بعض المؤرخين انكروا ذلك قائلين : لا يوجد قرية بهذا الاسم في مقاطعة طوس .
(٢٣) السبكي والعثمان وياقوت وابن خلكان .
(٢٤) السبكي جزء ٤ ـ ص ١٠٢ [ثم سافر الى جرجان للدراسة على ابي النصر الاسماعيلي وعلق عنده التعليقة ورجع الى طوس .]
(٢٥) هو عبد الملك بن عبد الله «ابو المعالي » توفي سنة ٤٧٨ هـ . فقيه شافعي اشعري نشأ في نيسابور ، وقف حياته على التعليم ونشر المذهب الاشعري . ينتسب الى قرية « جوين » قرب شيراز وفي نواحي نيسابور .. هاجر الى الحجاز فعلم وأفتى في مكة والمدينة حيث دعوه امام الحرمين ، ولما عاد الى نيسابور ، بنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية ليعلم فيها .. من مؤلفاته : « البرهان في اصول الفقه » و « نهاية الطلب في دراية المذهب » و « الشامل » و « الارشاد في اصول الدين » .
(٢٦) هو : يوسف بن تاشفين كبير سلاطين المرابطين . اسس مدينة « مراكش » وانتصر على ملوك الاندلس ، وخاض الحرب ضد جيش الفونس ملك قشتالة وليون في موقع « الزلاقة » .
(٢٧) وفاة الخليفة المقتدي بامر الله حدثت سنة ٤٨٧ هـ . بعد عملية « فصد » وقيل انها مؤامرة اسماعيلية .
(٢٨) « الباطنية » اطلقوها على الاسماعيلية لأنهم يقولون بالباطن والظاهر .
(٢٩) معيار العلم ـ الغزالي ـ صحيفة ٧ و ٨ .
(٣٠) قصة الحضارة « ديورانت » صحيفة ٣٦٣ .
(٣١) رجوع الغزالي ـ عمر فروخ . ص ٣١١ .
(٣٢) ابن عساكر ..
(٣٣) هذا اصوب ما كتب عن الغزالي في المصادر القديمة .
(٣٤) مقدمة كتاب « فضائح الباطنية » ـ عبد الرحمن بدوي .
(٣٥) السبكي .
(٣٦) اخبار الحمقى والمغفلين ابن الجوزي ص ١٩٥ .
(٣٧) هو ابو بكر محمد بن زكريا الرازي [٨٦٤ ـ ٩٣٢ م] من اشهر اطباء العرب ولد في الري وعمل في بغداد ، اشهر مؤلفاته « الحاوي » .
(٣٨) هو ابو حاتم احمد ابن حمدان الرازي توفي سنة ٣٢٢ هـ . من كبار دعاة الاسماعيلية . ولد في القرب من الري وتوفي باذربيجان . كان واسع الاطلاع عذب الكلام . اقام فترة في بغداد .. اشهر كتبه « الزينة » في المعاني القرآنية واشتقاق الكلمات وله اعلام النبوءة والاصلاح وغيره .
(٣٩) هو احمد حميد الدين الكرماني . كان داعياً في عهد الامام الحاكم بامر الله الفاطمي . يحمل لقب « حجة العراقين » عاش في فارس والعراق وهبط القاهرة سنة ٤٠٨ هـ . بطلب من الامام الحاكم بامر الله . يعتبر السجستاني استاذه وكان معاصراً لابن سينا ولا احد يدري مَنْ منهما اخذ عن الآخر .. أشهر كتبه « راحة العقل » و « الرياض » و « الاقوال الذهبية » توفي سنة ٤١١ هـ .
(٤٠) مجلة الرسالة المصرية ، السنة الرابعة ، ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٦ ، العدد ١٧٤ ، ١٧٨٣ صفحة .

(٤١) مجلة الرسالة المصرية ، السنة الرابعة ، ٩ نوفمبر سنة ١٩٣٦ ، العدد ١٧٥ ، ص ١٨٣٠ .
(٤٢) احمد النسفي من كبار الدعاة الاسماعيلية . اشتهر بأنه حول الدولة السامانية الى الاسماعيلية . من كتبه « المحصول » وهو مفقود . مات اغتيالاً .
(٤٣) كتاب المحصول من مؤلفات « النسفي » وهو مفقود وقد وضع في القرن الثاني للهجرة .
(٤٤) كتاب الاصلاح من تاليف ابو حاتم الرازي ، وقد حقق ونشر في طهران سنة ١٩٧١ .
(٤٥) هو ابو يعقوب السجستاني من كبار الدعاة الذين عاشوا ببلاد فارس يعتبر استاذ الكرماني . اشهر كتبه الينابيع ، والافتخار .
(٤٦) من مؤلفات السجستاني ولكنه مفقود .
(٤٧) الرياض من اشهر كتب الكرماني طبع سنة ١٩٦٠ في دار الثقافة ببيروت بتحقيق الدكتور عارف تامر .
(٤٨) هو البروفسور المرحوم هنري كوربان الافرنسي .
(٤٩) هو نصير الدين محمد الطوسي [١٢٠٠ ـ ١٢٧٣] .. ولد في طوس وتوفي في بغداد .. من اجلّ واكبر دعاة الاسماعيلية .. فيلسوف ورياضي وطبيب.وشاعر .. اسس مرصداً فلكياً في « مراغة » .. له مؤلفات في الطب والفلسفة وعلم الهيئة .. اعظم كتبه شرح الاشارات والتذكر .. صار وزيراً لهولاكو بعد دمار دولة الموت الاسماعيلية النزارية . سار على نهج ابن سينا ويعتبر من تلاميذه ...راجع كتابنا « نصير الدين الطوسي في مرابع ابن سينا » مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر ـ بيروت ـ لبنان .
(٥٠) راجع : حقيقة اخوان الصفاء وخلان الوفاء تاليف : عارف تامر المطبعة الكاثوليكية بيروت ـ لبنان .
(٥١) هو : ابو نصر محمد بن طرفان . ولد في قرية « وسيج » بالقرب من « فاراب » التركية سنة ٢٥٩ هـ . وتوفي في دمشق سنة ٣٣٩ هـ . والده كان قائداً في البلاط التركي ... درس في بغداد على معلم نصراني هو « يوحنا بن حيلان » وجاء الى حران ثم انتقل الى حلب حيث عاش فترة في بلاط سيف الدولة .. حمل لقب المعلم الثاني ... من اشهر مؤلفاته « الجمع بين راي الحكيمين » و « رسالة فصوص الحكم » و « اراء اهل المدينة الفاضلة » و « الموسيقي الكبير » .
(٥٢) هو : ابو الوليد محمد بن احمد . ولد سنة ٥٢٠ هـ . في قرطبة . والده وجده كانا من مشاهير القضاة تعلم الفقه والشعر والطب والفلك والرياضيات والفلسفة . انتقل الى مراكش سنة ٥٤٨ هـ . وفي سنة ٥٦٥ هـ . صار قاضياً على اشبيلية ، عرف بانه شارح « أرسطو » .. عمل للتوفيق بين الدين والفلسفة ، وله كتاب « الحيوان » و « تهافت التهافت » في الرد على الغزالي عندما هاجم الفلاسفة ..
(٥٣) هو : ابو ريحان .. ولد سنة ٣٦٣ هـ . في احدى قرى ضواحي « خوارزم » وبعد ان كبر رحل الى جرجان والى مدن اخرى . رافق محمد الغزنوي الى فتح الهند . توفي في غزنه سنة ٤٢١ هـ . درس الرياضيات والفلك والطب والتقاويم والتاريخ والعلوم اليونانية والهندية ، وكانت بينه وبين ابن سينا علاقات ومناظرات .. اشهر كتبه « الآثار الباقية في القرون الخالية » و « القانون المسعودي » و « رسائل البيروني » و « الجماهر في معرفة الجواهر » .
(٥٤) هو : ابو يوسف بن اسحق الكندي .. لقبه فيلسوف العرب . ولد سنة ١٨٥ هـ . في الكوفة من عائلة عريقة من قبيلة كندة .. والده كان اميراً على الكوفة . قدم الى بغداد وحظي برعاية المأمون العباسي والمعتصم . اهتم بالرياضيات والمنطق والعلوم الطبيعية والفلك والفلسفة والموسيقى .. مات سنة ٢٦٠ هـ . في بغداد ... يعتبر من تلامذة المدرسة الافلاطونية المحدثة ، واتفق مع الاسماعيلية في نظام الكون والعقول .

(٥٥) هو : **ابو علي سينا** او الشيخ الرئيس . ولد في « افشنه » قرب بخارى سنة ٣٧٠ هـ . والده كان من دعاة الحاكم بامر الله الفاطمي ... اعظم فيلسوف وطبيب وعالم موسوعي على الاطلاق ... راجع كتابنا عنه « ابن سينا في مرابع اخوان الصفاء » من منشورات مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ... بيروت ، لبنان .

(٥٦) هو : **فخر الدين محمد بن عمر التميمي البكري** . ولد في الري وتوفي في هراة سنة ١٢١٠ م . كان عالماً بالتفسير وعلم المعقول والمنقول . اشهر كتبه : « مفاتيح الغيب » و « المحصول في الفقه » و « فضائل الصحابة » و « الملل والنحل » ..

(٥٧) كتاب احياء علوم الدين **للغزالي** غني بالمواقف التحليلية الصادرة عن التفكير الروحي العميق ، وقد جاء في اربعة اجزاء ، وكان مؤلفه الغزالي يهدف الى احياء وانماء الناحية الروحية في الفرائض الشرعية وايصال النفس الى ذرى محبة الله [شرحه ابن الجوزي وابن يونس] .

(٥٨) **التقية** معناها الاحتراز من افشاء الاسرار ، وقد اعتمدها الباطنيون للحفاظ على اسرار الدين . لقول الامام الصادق : [التقية ديني ودين آبائي واجدادي ومن لا تقية له لا دين له] .

(٥٩) تاريخ الشعوب الاسلامية **بروكلمن**.

(٦٠) **الالوسي والرفاعي** .

(٦١) انظر « الهاشم » **الفارابي** ـ وقارن رسائل **الكندي** الفلسفية وآراء اهل المدينة الفاضلة ، والفوز الأصغر **لمسكويه** ومباحث الفيض **لأخوان الصفاء** وقارن بما لدى الاسماعيلية من اقوال .

(٦٢) الغزالي ومصادره اليونانية **بدوي**.

(٦٣) « **المعتزلة** » جماعة اعتمدوا على المنطق والقياس في مناقشة القضايا الكلامية في تعاليمهم .. فقالوا : ان مقترف الكبيرة ليس بالكافر ولا بالمؤمن بل في منزلة بين المنزلتين . وقالوا بحرية الاختيار ـ أي ان الانسان ذو ارادة حرة وليس مجبراً على اتيان اعماله . وبحثوا في قضية خلق القرآن والتوحيد والعدل والصفات الالهية .

تعتبر المعتزلة اجرأ الفرق الاسلامية في مواجهة الخصوم ومجادلتهم ونقد افكارهم ، وقد بدأت بـ « واصل بن عطاء » ثم بتلميذه « عمرو بن عبيد » الذي كان تلميذاً « للحسن البصري » وكان البصري يعتبره من خيرة تلاميذه ، غير ان واصلاً اختلف مع استاذه حول قضية الخوارج ، واتسع نطاق المعتزلة اتساعاً كبيراً حتى انها كانت تضم في حلقاتها كبار المفكرين وخاصة في العصر العباسي امثال الجاحظ والنظام وابي هذيل العلاف وبشر بن المعتمر وابو الحسين الخياط وغيرهم . وفي عهد الخليفة العباسي المأمون اصبح الاعتزال مذهب الدولة وأرغم الخليفة الناس على اعتناقه ، ولكن المتوكل خالف سلفه وحارب المعتزلة واضطهدهم وقتل بعض قادتهم ، ولكنهم ظلوا يعملون سراً ، الا ان نهايتهم كانت في اواخر عهد المتوكل عندما اقدم على حرق اكثر كتبهم .

من الواضح ... ان المعتزلة هم اول من زاولوا علم الكلام ، وانشأوا مدرسة ذات طابع ديني تاملي .. نشأت المعتزلة في البصرة منذ النصف الأول من القرن الثاني للهجرة ، وانتشرت حركتهم حتى ان عدداً من مفكري الاسلام انضووا تحت لوائهم ، وكانت بغداد مقراً لمدرستهم طيلة عهود عديدة ، كما ان مذهبهم كما قلنا أصبح في وقت من الاوقات المذهب الرسمي للاسلام السني ، وقد بلغت المعتزلة اوج ازدهارها في خلافة المأمون العباسي ، واستمر حتى عهد المعتصم ثم حتى عهد الواثق ، وعندما جاء المتوكل سنة ٨٤٦ حاربها وأقصى رجالاتها .

يدور مذهبهم حول أمرين اساسيين هما : مبدأ التوحيد بالنسبة لله ، وحرية الانسان بالنسبة للانسان .. ويقولون :

١ ـ **بالتوحيد** ـ الذي هو المبدأ الاساسي في الاسلام .. فالله واحد ليس كمثله شيء .

٢ ـ **بالعدل** ـ وهو المبدأ الذي يوجب القول بحرية الانسان ومسؤوليته عن الافعال ، او ان حرية الانسان ومسؤوليته تنجمان عن مبدأ العدل الالهي نفسه وإلا فإن فكرة العقاب والثواب في الآخرة تصبح مجردة من كل معنى ، هذا الى جانب انعدام الثقة بالعدل الالهي .

٣ ـ **بالوعد والوعيد** ـ ان الله وعد المؤمنين بالثواب وتوعد الكافرين بالعقاب . فالمعتزلة يقولون : ان العدل الالهي ـ يفترض ان لا يعامل المؤمن والكافر على حد سواء ، كما ان الحرية تتضمن ان يكون الانسان مسؤولاً عن افعاله سواء في الخير او في الشر .

٤ ـ **بالمنزلة بين المنزلتين** ـ يقولون ان هناك منزلة بين الكفر والايمان والصغائر والكبائر ، فالمعاصي الصغائر لا تستوجب اقصاء صاحبها عن حلقة المؤمنين على ان لا يعود العاصي الى ارتكابها .

٥ ـ **بالامر بالمعروف** ـ ويهدف الى التطبيق العملي لمبادىء العدالة والحرية في السلوك الاجتماعي ، فالعدالة لا تنحصر في تجنب الاذى والظلم اللذين يصيبان الفرد بل هي ايضاً عمل الجماعة كلها في سبيل خلق جو من المساواة والانسجام الاجتماعي .

٣

طريد المقادير

المصادر التاريخية الاكثر صدقاً في الرواية اجمعت على القول : بأن الغزالي امضى ما يقارب من عشرة اعوام في مدينة دمشق وهو ناعم البال مرتاح الضمير يتمتع وهو في استراحته بالحرية التي كان يتوجه اليها ، يحتاط به طلابه المعجبين بأدبه وعلمه ، والعلماء الذين قدَّروا خدماته للدين فكافأوه بالتقدير والاحترام وجاءوا ليستفيدوا من علومه وآدابه ، ولتقديم كل ما يمكن من ضروب الحفاوة والتكريم .

إننا نلاحظ ونحن نتتبع آثاره ، انه خلال تلك المدة لم تبدر منه اية بادرة تنم عن قلق او خوف او اضطراب او فكرة بترك دمشق ، والانتقال الى مدينة اخرى .

فماذا حدث اذن في نهاية المطاف حتى جعله يغادر دمشق بهذه السرعة ؟ وانني لا ادري فيما اذا كان يصح القول او التساؤل هل جاءه من بغداد او من نيسابور طلباً بالعودة ، فاعتبر ذلك انذاراً له بالعقاب ، مما جعله يسرع بالذهاب الى القدس ، او ان تهديداً بالثأر او الانتقام ورد اليه من الباطنية الاسماعيلية ، وهم من الكثرة بمكان في بلاد الشام ، او لعل كتابه « احياء علوم الدين » الذي احدث ضجة كبرى في الأوساط الدينية والعلمية جعل بعض العلماء المعارضين لآرائه في دمشق يشنون عليه حملة كبرى .

ان كافة الاحتمالات واردة ، ولكن من الصعوبة جداً تحديد السبب الذي جعله يترك مدينة دمشق ويتوجه الى القدس مفضلاً العيش حراً وهو على مقربة من الصليبيين الفاتحين ، على البقاء في بلاد اسلامية مستقلة مهدداً وأسيراً . والأغرب من كل ذلك ذهابه من القدس الى الاسكندرية ، وكما قلنا فان الاسكندرية كانت من المدن الخاضعة للدولة الفاطمية « المستعلية » وقد يكون قد توسَّم فيها امناً على اعتبار ان حكامها ضد الاسماعيليين « النزاريين » الشرقيين، وليس بعيداً أن يكون قد أراد ان يجعل منها ممراً لمراكش .

هذه الالغـاز في حياة « الغزالي » لا أجد لها حلاً ، واعتقد انه من الصعوبة جداً على أي باحث ان يصل الى معرفتها بسهولة بالرغم من ان كل هذا ذو علاقة وثيقة بحياة الغزالي العلمية .

أجل .. ونكرر القول بأن في حياة الغزالي قضايا مثيرة وغامضة ، وما أحرانا أن نجعل من حياته قصة عاطفية تصوِّر حياته وهو طريد مشرد لا يستقر في مكان وتلاحقه الهواجس والافكار السوداء .

ويـأتي بعد ذلك موضوع عودته الى بغداد ، فهذه العودة كما يبدو جعلها الرحلة الاخيرة في حياته او انه ارادها خاتمة الآلام والقلق ، ومن الواضح أنه لم يعد الى بغداد الا بعد ان أصابه اليأس في الصميم ، وعجز عن ايجاد مستقر له في هذا العالم الاسلامي الرحيب ، وقد يكون في عودته الى بغداد ما يوحي بأنه قرر أن يجعلها ممراً الى مسقط رأسه « طوس » مفضـلاً أن لا يبقى فيهـا طويـلاً حتى لا يرى أصـدقـاءه وتلاميذه ، والمعجبين به، وكل هذا يجعلنا نقرر بأنه مرض الخوف قد عاد إليه من جديد، وقد تجلى ذلك في قراره الذي قضى بالعودة الى وطنه طوس للإقامة فيه نهائياً والابتعاد عن كل نشاط والاستسلام الى الزهد في كل شيء تاركاً للأقدار حق تقرير مصيره الأخير ، وقضاء الأوقات بالصلاة والعبادة والتأمل والانقطاع ، ولكن الوزير السلجوقي « فخر الملك بن نظام الملك » اراد ان لا يعطيه مهلة للراحة ، فأمره بالرجوع الى التدريس في المدرسـة « الميمـونية » النظامية بنيسابور ، وكما قلنا فان ارادته الضعيفـة وشخصيته المنهارة لم تستطع رفض الطلب أو مقاومة هذه الارادة الوزيرية القوية ، فما كان منه الا أن سقط في الهوة التي كان قد حذر نفسه من الوقوع فيها ثانية .

ومهما يكن من أمر ... فان عودته الى التدريس جاءت كما يبدو دون رغبة ، ولكن خوفه من أن يظن فيه الظنون جعلته يلبي الطلب ، ولكن شاءت الأقـدار أن تكـون المـدة قصيرة، فالوزير[٦٦] لم يلبث أن سقط صريعاً، مما افسح المجال أمامه لتنفيذ رغبته أو تقرير ما يصبو إليه ، وهو اعتزال التدريس واللجوء الى منزله حيث عاش فيه حتى آخر يوم من أيام حياته .

ان زهد الغزالي في أواخر أيامه نوَّه عنه « أبو بكر بن العربي » الفقيه المالكي وهو من تلاميذ الغزالي بقوله :

لقيت الغزالي في البرية وعليه مرقعة وبيده ركوة وعكاز ، فقلت له :
أليس تدريس العلم ببغداد خير من هذا ؟ فنظر الي شزراً وقال : لما بزغ بدر السعادة في سماء الارادة وجنحت شمس معارف الوصول :

تركتُ هوى ليلى وسعدى بمعزلٍ
وعدتُ الى تصحيح أول منزل
ونادت بي الاشواق مهلاً فهذه
منازل من تهوى رويدك فانزل

وننتقل الى مؤلفات الغزالي ... فنقول :
بأن عددها تجاوز الخمسين كتاباً .. ولكن أهمها :
« إحياء علوم الدين » « تهافت الفلاسفة »، « مقاصد الفلاسفة »، « الرد على الباطنية »، « فضائح الباطنية »، « مشكاة الأنوار »، « المنقذ من الضلال »، « قانون التأويل »، « منطق الطير »، « قواصم الباطنية »، « تهذيب الاصول »، « قانون الأنوار »، « رسالة في المنطق »، « إحياء علوم الدين ».

من الواضح ان كتاب « المنقذ من الضلال » هو آخر كتاب كتبه الغزالي ، ففي تلك المرحلة من حياته قطع كل صلة له بالعالم الخارجي والداخلي الذي غلب عليه الظلم والتعسف والمفاسد ، مما جعل الدين يخرج من المجتمع الى غير رجعة ، وهذا ما حفزه على الانكباب على قراءة القرآن ، والترحم على الوزير فخر الملك الذي كان في طريقه الى ترك حياة السياسة والانصراف الى العبادة ومجالسة أهل العلم .

ان حالة مثل هذه تدل على أن الغزالي في أيامه الأخيرة قد تضافرت عليه قوى أخرى جعلته يفقد قواه العقلية نهائياً ، فأصبح يعيش كأي مجنون يهيم في البراري وحيداً وبعيداً عن الناس والمجتمعات ، وكل هذا كما اعتقد ليس له أي اتصال بالصوفية التي كانت مدرستها قائمة ، فالصوفية في تاريخها كما نعلم لم تصل الى مثل تلك التجربة من التشرد والهذيان ، الا في حالات شاذة فرضها بعض المتطرفين من اصحاب الشطحات والعقول المريضة .

ولا بد من القول: بان ما ذكره تلميذ « الغزالي » « أبو بكر العربي » عن معلمه يدل على أن الغزالي في آخر أيام حياته قد أصيب بعارض ، أو أن مرضه النفساني القديم قد تفاعل وتضاعف حتى وصل به الى مثل

هذه الحالة الرزيّة .

لقد مر معنا ان بعض المتصوفة سلكوا مثل هذا السلوك ، فتاهوا أو تشردوا في البـراري والقفار وكانوا يتكلمون بكلمات غريبة وبعيدة عن الافهام بل ومثيرة للتساؤل ، ولا تتفق وواقع العبادات والأديان . وهؤلاء كانوا ينتمون الى مدارس صوفية لها برامج وقواعد وتعاليم ومبادىء . اما الغزالي فان رواية تلميذه ابو بكر عنه تعتبر غريبة جداً ، لأنها تأتي من رجل ليس له أي انتماء للصوفية ، كما لم نسمع عنه بأنه مارس الرياضة المعتـرف عليها لدى الصوفيين ، كما عرفنا من تاريخ حياته ، وهذا ما جعل تلميذه ابو بكر يستغرب ذلك ايضاً .

هناك ناحية جديرة بالتساؤل ايضاً :

فالتاريخ لم يذكر لنا شيئاً عن أولاد الغزالي أو عن زوجته ، وقد ذكر القليل عن أخيه « أحمد الغزالي »[٦٧] الذي تسلم مركزه وكالة في المدرسة النظامية ببغداد .

ومهما يكن من أمر ... فان دراسة الغزالي من جميع الجوانب مسألة خطيرة ومحفـوفـة بالعثـرات ، فهنـاك فصول كثيرة من حياته يعتورها الغمـوض ، وقد لا نجد لها أي أثر في التاريخ ، وهذا ما يجعلنا نشك بالكثـير من الروايات والاعتقادات والأقوال التي نقلت عنه ، وتداولها المؤرخون والباحثون الواحد تلو الآخر .

اني أرفض بصراحة كل ما ذكر عن والده بانه كان صوفياً ، وهكذا بالنسبة للوصي على ولديه وقولهم عنه أيضاً بأنه كان صوفياً أيضاً ، كما لم يستثنوا استاذه الأول « الفارميدي » من هذه الصوفية ، وأضافوا بان كل هذا كان له أكبر الأثر في نفسيته منذ الصغر ، مما جعل الصوفية تسري في عروقه منذ ذلك اليوم .. ان هذا القول برأيي لا يشكل شيئاً ولا أرى فيه أية قيمة ، كما أنه لا يتضمن أية وسيلة للاقناع ، فليس كل من يبيع الصوف ويتاجر فيه صوفياً ، وليس كل من يصادق تاجر الصوف صوفياً ، كما أنه ليس كل من يزهد في الدنيا ، ويعتزل الناس ويداوم على الصلاة والعبادة صوفياً . اننا سنذكر في الفصل الأخير من هذا الكتاب أثر الصوفية في حياة الغزالي ، وعلاقة الغزالي بالمدارس الصوفية ، ولأية مدرسة منها كان ينتمي ، وسنتحدث عن انتاجه الصوفي وأثره في الحياة العامة ، ولعل هذا كله له أهميته في حياته .

أثر الصوفية في حياة الغزالي

لا بد لنا ونحن نتحدث عن « الصوفية » من اعطاء بعض التفسيرات لهذه الكلمة التي كان لها شأن كبير في العصور الماضية .

ان كلمة « صوفي » مشتقة من الصوف ، وهي اشارة الى التزام الصوفيين بارتداء الألبسة الصوفية البيضاء التي كانت تميز مجموعة النسَّاك الذين يشتغلون بالرياضة الدينية والعبادات الخيالية الغيبية وبالزهد والانقطاع عن كل ما في الحياة الدنيا من مباهج ومسرات . وهناك رأي يبدو أكثر قبولاً وقرباً من الواقع .. يقول : بأنها مأخوذة من كلمة « صوفص » أو «SOPHOS » ، وهي يونانية ومعناها « الحكيم » وقد أيَّد الفيلسوف « البيروني » هذا الرأي بقوله :

انها مأخوذة من كلمة «PHILOSOPHOS » اليونانية .

ذكر ان التصوف هو الاقتراب من الله ، وقيل هو العكوف على العبادة ، والاعراض عن مظاهر الدنيا من لذة أو مال ، وقيل هو سلوك معين قد يختلف بين الافراد ، ويرمي الى الاتحاد بالله اتحاداً كلياً ، وقيل هو معرفة الله معرفة وجدانية لا حسية تنكشف معها الحجب بين المتوسط والله، فيرى ما لا يراه الانسان العادي ، وقيل هو الفناء الكلي في الذات الالهية ، وقيل هو تجرد النفس الانسانية الجزئية من كل علائق البدن ومؤثرات الحياة الدنيوية ، وقيل هو حالة من « الوجد » تحدث بنور يلقيه الله في القلب ، فيجد الانسان الله « بغيته » فلا يشعر بما يحيط به حتى ولا ببدنه ونفسه وانما بالله وحده .

والتصوف على درجات ثلاث :

الاتصال أو الفناء بالذات الالهية ، أو حالة وجد أو انكشاف الحجب بين الله والانسان ، وهناك طرق عديدة من المتصوفة مارسها اشخاص عرفوا باسم « أصحاب الطرق » ... وهناك تصوف « ظاهري » ومعناه الزهد باللذة والمال والجاه والانصراف عن كل مظاهر الدنيا والانقطاع لعبادة الله رجاء العفو والمغفرة .

أما التصوف بالنسبة للفِرَق .. فهناك طرق عديدة أهمها القائلين بالفناء الكلي والاتحاد المطلق بالله كقول بعضهم : أنا الحق .. فكأن الله

حلّ فيه ، أو الصوفي حلّ بالله أو كأنهما متحدان .

ان التصوف ليس غريباً على الأديان ، وقد يكون في بعضها أساساً ثابتاً ، وفي الاسلام اتجه ودخل عنصر الفكر والمنطق واعتمد على تفاسير وبراهين خاصة تستند على العقل والمنطق .

وقام من المتصوفة أعلام دافعوا عن اتجاههم ، كابن عربي[٦٨] ، والحلاج[٦٩] ، وابن الفارض[٧٠] ، والسهروردي[٧١] ، فقالوا بإمكان حلول الله في الفرد ، فيكون الفرد حقيقة الهية ، فهو حاضر مع البشر وغائب عنه ، وكان الحلاج يحاول اثبات ذلك بنفسه ، فجاء أيضاً بآيات قرآنية وأحاديث نبوية فسرها على انها تعني « الحلول » كاختيار الله للانبياء أي حلول ارادته أو ذاته فيهم .

واعتمد المتصوفون على الرهينة والاعتكاف في الصوامع حيث يقومون بطقوسهم وشعائرهم بحرية ، واعتمدوا المراتب التي يتدرج بها المريد والسالك الى الفناء في الذات الالهية ، فليس كل انسان يستطيع بلوغ هذه المرحلة ولا بد له من المرور بمراحل ومنها قطع علائق البدن والنزعات الدنيوية ، واعتمدوا الموسيقى وعنصر الطرب والسماع والرقص « وسيلة للوجد » وللغيبوبة عن العالم ومشاهدة الحق وقهر الجسد والاتحاد بالله والحلول والفناء والتقشف .

لقد ظهرت الحركة الصوفية في العالم الاسلامي ظهوراً تميّز بالسرية المطلقة احياناً وبالعلنية تارة ، فهي في كافة المراحل كانت تخضع للتقلبات السياسية وللتيارات العنيفة التي كانت تعصف في المشرق الاسلامي حيناً بعد حين حاملة معها ادوات التغيير والتبديل والتمهيد لاقامة اوضاع اخرى على انقاضها .

ففي المشرق وخاصة في بلاد فارس نشأت هذه الحركة ونمت وترعرعت ، فتخرج من مدرستها اعلام كان لهم اكبر الاثر في مجال الفكر وفي ادخال فكرة الفناء الهندية التي كانت تجتاحها موجة من الاباحية والجمود والخروج عن الواقع المعقول ، ولكن هؤلاء لم يكونوا من مدرسة واحدة ، فللصوفية مدارس تختلف في المنهج والسلوك والآراء وربما وصل اختلافها الى حد الدخول في جدل ونقاش كان يؤدي في اغلب الاحوال الى تكفير بعضهم البعض ، ولم تستطع الفرق الاسلامية الأخرى التي تقيدت والتزمت وسارت على نهج الاسلام كبح جماح المتحمسين من

الصوفيين اصحاب « الشطحات » الغريبة رغم كل ما بذلوه من جهود .
وفي الديار المصرية وبلاد الشام نشطت هذه الحركة نشاطاً منقطع النظير ، وخاصة في اواخر العهد الفاطمي ، ثم ازداد نفوذها عند زوال الدولة الفاطمية اي منذ بداية عهد الايوبيين ، فبدأت تقوم بحركات صوفية يتمثل فيها الهذيان والجنون فهي بمجموعها عقائد مستوردة من الهند وفارس خرجت على المألوف وتطورت حتى اصبحت بعيدة عن المنهج الاسلامي .

اجل .. كان للصوفيين مدارس عديدة تختلف عن بعضها البعض في العقائد والافكار والمبادىء ولكنها كانت تنحي منحىً واحداً في موضوع الفناء الذي هو بنظرهم انتقال القدرة الالهية كلية الى كلياتهم الذائبة في الذات الاولى ، ومن هذه المدارس تخرَّج اعلام لعبوا ادواراً مهمة على مسرح الفكر الاسلامي الانساني في تلك العصور ، وكان ابعدهم ذكراً وأهمهم اثراً « محي الدين بن عربي » الذي دافع عن آرائه بجرأة نادرة وخاصة في موضوع « وحدة الوجود » .. وفي كتابه « خصوص الحكم » يعطي التعبير الاسمى للمبادىء الصوفية ولوحدة الوجود في صورتها النهائية كما يضع مصطلحاً صوفياً كاملاً استمده من القرآن الكريم والحديث وعلم الكلام والفلسفة المشائية والافلاطونية والرواقية ، كما انه انتفع بمصطلحات فلسفية اخذها من « رسائل اخوان الصفاء » الاسماعيلية .

ان فلسفة « ابن عربي » جاءت مزيجاً من الآراء والفلسفات التي عرفها الفكر الانساني قبله ، وفي هذا يتفق مع الاسماعيليين الذين طعَّموا فلسفتهم بآراء قديمة ، بعد ان هذبوها وجعلوها مقبولة في مجتمعهم ، وهكذا فعل ابن عربي بأن اخضع آراء من سبقه لمذهبه في التصوف . وبالنسبة للغزالي الذي هو موضوع حديثنا ، فكان يرى بالصوفية انها طريقة تتم بالعلم والعمل وبالبعد عن الاخلاق الذميمة وهوى القلب ، وكف النفس عن ميولها والاقبال على الله ، ويضيف على ذلك قوله :

انها اطهر السبل وانقاها ، فأولها تطهير القلب واستغرابه بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلّية في الله ، ويعتقد ان التصوف الصحيح يوصل الى المشاهدات والمكاشفات حتى أن الصوفي في يقظته يشاهد الملائكة وأرواح

الانبياء ثم يرتفع الى مشاهدة الصور والامثال والى درجات يضيق عنها النطق . أما الغلاة من المتصوفة الذين يقولون بالحلول او بالاتحاد او بالوصول ، فهؤلاء على خطأ .

هذا هو رأي الغزالي بالصوفية . اما الآراء الاخرى فتذهب الى القول عنها بأنها مزيج من علوم مختلفة ، ومناقشات كلامية وآراء متناقضة ، وفيها تظهر بعض الوصايا والارشادات والمواعظ التي تدعو الى عمل الخير ، واجتناب الشر والزهد وضبط النفس وزجرها عن الشهوات .

اجل .. مدح الغزالي المتصوفة في بروزهم بالحكمة وكمالهم العقلي ، ولكن كل ذلك لم يمنعه من انتقادهم على الآراء الجريئة التي ذكرناها ، والتي لا تتفق وجوهر الدين الاسلامي ، ومن هنا نستطيع ان نقرر :

بأن صوفية الغزالي مشروعة ومقبولة ، وقد تلتقي بصوفية الكثير من رهبان الاديرة والصوامع المسيحيين واليهود والهنود ، كما تتفق في العديد من المطارح مع آراء فلاسفة الاسماعيليين وعلى رأسهم « الكرماني » الذي يقول في كتابه « راحة العقل » :

« النفس شرفها في نيل كمالها الثاني الذي هو السعادة الابدية والفوز بالبقاء في جوار الباري عز وجل ونيلها الكمال الثاني بشيئين :

احدهما التهذيب من امارات الطبيعة وظلمتها التي هي الغضب والظلم والطمع وقلة الرحمة وغير ذلك مما هو طبيعي لها من الرذائل لتصير بخلوها من هذه الدنايا مطابقة لما يرد عليها من ذاتها عند التصور بالصور الالهية فينجع فيها وفاءً لها ، وثانيها التصور بالمعالم الالهية التي هي الاحاطة بما سبق عليها في الوجود من اعيان العقول الابداعية والانبعاثية والاجسام العالية والسفلية لتصير في ذلك الحد الذي تقوَّم بما تصورته عقلاً ، كعين المتصوف لا فرق بينهما من تلك الجهة » .

ويقول الكرماني ايضاً : وان من يقرأ رسالتنا الوحيدة في « المعاد » فانها تصور له اموراً في التقديس فيقدس الله تعالى في خلواته ، فان اتفق له رفيق موافق وانيس مصادق فهو النعمة الكبرى ، ويواظب على ما يلزمه من العبادتين العلمية والعملية . اي الباطن والظاهر » .

وهكذا فان هذه الآراء تعكس آراء الصوفية ، وقد تكون الاسماعيلية قد ابرزتها عندما كانت تعاني من ضغوط سياسية ، فاستعمالها كان للتقية ولنجاة النفوس ، او بسبب مظهر من المظاهر الذي يتطلبه الموقف

الراهن ، فلا غرابــة بعــد ذلك اذا ما رأينــا احــد كبــار المستشرقــين « ماسينيــون » يذهب الى القــول بعــلاقة الحلّاج المتصوف بالقرامطة الاسماعيليين ... يقول ابن عربي في كتابه « الفتوحات المكيّة » منادياً بوحــدة الوجود : « سبحان من خلق الاشياء وهو عينها .. وقال : فان للحق في كل خلق ظهوراً ، فهو الظاهر في كل مفهوم ، وهو الباطن عن كل فهم الا فهم من قال ان العالم صورته وهويته » ... وقال :

احدية كل شيء معقولة بحيث لا يمتري فيها من له مسكة عقل ونظر صحيح ، وانت اذا نظرت الى هذا الوجود فلا بد ان تحكم عليه بأن له رتبة يكون عليها في الوجود ، فإما ان يكون مؤثِراً او مؤثَراً فيه ، واما ان لا يكون واحداً منهما ، واما ان يكون المجموع ، فالمؤثر هو الفاعل والمؤثر فيــه محــل الانفعال ، وما في الوجود الا المجموع ، ولكن الاسماعيلية يذهبون في توحيدهم مذهباً مخالفاً لما يقول به ابن عربي .. فيقولون :

ان الله ليس كمثله شيء ، فلا يمكن انه « أيساً » وباطل ان يكون « ليساً » اي لا نفي ولا اثبات ، فهو ليس من جنس العقول حتى تدركه العقول ، لأنه هو مبدع العقول وليس من جنسها ، ولا يمكن ان يوصف بصفة توصف به مخلوقاته .

فالله عند الاسماعيلية هو مبدع الوجود ، او مبدع الكل كما يقول ابن سينا ومن قبله اخوان الصفاء ، ولكنه عند اصحاب وحدة الوجود هو عينهــا والعــين واحدة ... ويظهر الخلاف على اشده بين الاسماعيلية والصــوفيــة ، عندما يهمل ابن عربي منهج العقل القائم على التحليل والتركيب ويأخذ بمنهج التصوير العاطفي والرمز والاشارة والاعتماد على اساليب الخيال في التعبير ، وهذا لا يتفق مع آراء الاسماعيلية الداعية الى اعمال العقل والتفكير . فالوجدان والخيال ليس لهما سبيل الى نظامهم الفكري لهذا عرفوا قديماً « بالتعلمية » وهي التي تقول بالعبادة العلمية المرتكزة على العقل الذي يقوم « المعلم » باتخاذ صفة « ممثوله » ... الا اني ارى تقارباً في النظامين عند بحث النبوءة الروحية ، فالابن الروحي اعظم منزلة من ابن الجسد عند الصوفية ، ويدعم هذا الرأي اخوان الصفاء عندما يقولون :

ان النسبة الجسدانية تنقطع اذا اضمحلت الاجسام وتبقى النسبة النفسانية ، لأن جواهر النفوس باقية بعد فراق الاجساد ، وان كان يظن

ان الابن الجسداني يحيي ذكر ابيه بعد موته ، فالابن الروحاني ايضاً يحيي ذكر ابيه في مجالس العلماء ، كما نذكر نحن معلمينا اكثر مما نذكر آباءنا .

ويتفقون ايضاً بالادوار والفترات .. فالاسماعيلية يقولون :

ان الله تعالى يرسل رسولاً ليدعو الناس الى الصراط المستقيم ، ولكن تأتي بعد الرسول فترات تكثر فيها البدع والاهواء ، فيرسل الله رسولاً آخر للهداية ، والنبي محمد هو خاتم الرسل ولكن الائمة من بعده هم الذين يقومون بالحفاظ على الشريعة والدين ، فهم حجج الله على عباده الى ان ينقضي الدور الاكبر بظهور قائم القيامة . ويقول محمد بن أبي حمزة ، وهو من اعلام الصوفية :

لما ان العلماء والأولياء هم ورثة الرسل والانبياء ، فلا بد من حصول فترات تقع بين العالم والولي والوالي ، فان اندثرت طريقة الداعي اتى بعد زمان من يجددها ، ولما كان يحصل في فترة الانبياء عبادة الاصنام من دون الله لذلك تقع في فترات الأولياء عبادة البدع والأهواء وتبديل الافعال بالاقوال ، ولكن كل هذا لا يفيد في شيء امام قول « ابن خلدون »[٧٢] في مقدمته :

ثم ان هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة وملأوا الصفحات والكتب ... ومعنى ذلك ان الصوفيين المتأخرين حرفوا وبدلوا وعدلوا ما شاء لهم حتى سلكوا طرقاً لا عهد للصوفية القديمة بها ، وهكذا فعل الاسماعيليون المحدثون بسلوكهم مسالك وعرة لا تتفق مع المبادىء الاسماعيلية الاصيلة حتى اصبحوا لا يحملون منها الّا الاسم .

هذا .. ونعود الى موضوعنا الرئيسي عن الغزالي وتصوفه .. فنقول :

ان تصوف الغزالي يختلف في كثير من المناحي عن تصوف المتصوفين الأصليين ، فتصوف الغزالي يقوم على العلم والعقل والالتزام بقواعد الدين وزهداً بالدنيا ، وبعداً عن شرورها وآثامها ، وكل هذا دون التزام بمدرسة او فئة او نظام يقوم على قواعد او قوانين او مبادىء عامة تذهب في مذهبها الى حد الخروج عن القواعد المألوفة التي تلزم المسلم باتباع القواعد والفرائض والسنن ، وما شرع به الرسول ، وما جاء به القرآن الكريم . فصوفية الغزالي بدأت من تطلعه الدائم الى الجوانب الروحية

كانسان مطيع عابد يطلب ان تكون صلته بربه قائمة على اسس واقعية وخالية من الجنوح والغلو والشطحات الجنونية .

لقد زهد الغزالي في الدنيا ، وانقطع في ايامه الاخيرة للعبادة وللتأمل ، ولم نسمع انه حضر حلقة من الحلقات او انتسب الى مدرسة من المدارس أو إلى جماعة من المتصوفين ، بل ظل وحيداً في مدرسة الصوفية المعتزلة المعقولة التي لا ترتبط بأية مدرسة من المدارس او بهيئة من الهيئات المعروفة باتباعها اساليب مغايرة ومخالفة لقواعد الدين الاسلامي ، وهي على العموم مستوردة من اديان اخرى ، ومن طقوس هندية وفارسية قديمة ربما تظهر فيها عبادة وطقوس وثنية فيها شطحات من الكفر والجنون ، وخاصة في مواضيع العشق والحلول والحب الالهي والتشخيص للمحبوب وشرب الخمور الروحية وغير ذلك .

ان القول بان الغزالي قد تفاعلت فيه محبة الصوفية منذ ان كان صغيراً ، فوالده كان من الصوفيين الذين غرسوا فيه هذه العقيدة ، ثم انها نمت وترعرعت بعد موت والده بتأثير الوصي الذي كان يشرف على تعليمه القراءة والكتابة ، وقد ذكروا انه كان ايضاً من كبار الصوفيين ، وزيادة على ذلك حين تولى تعليمه الفقيه المتصوف المشهور « الفارميدي »[٧٣] .

ان هذا القول يدعو الى الاستغراب ، واني لست ادري كيف جعلوا هذه العروض من الاسباب التي ادت بالغزالي الى اتباع الصوفية ، فهل هذه المؤثرات كلها جاءت لازمة وملزمة حتى دمغته بطابعها لدرجة انه اصبح لا يقوى على الابتعاد عنها ؟ واني استغرب كيف اغفلوا ذكر دراسته على الداعي الاسماعيلي في « جرجان » ونيله منه « التعليقة » ، ولماذا هذه التعليقة ؟ ومن هو الذي ارسل الغزالي الى هذا المكان ؟ ولماذا لم يذكروا تأثير هذا الداعي عليه .. بل لماذا لم يذكروا بأن الاسماعيلية تناهض الصوفية وهكذا بالنسبة للاشعرية التي عرف بأن الغزالي كان لسانها الناطق .

ان تأثير الأب على الابن معقول ويصدقه العقل ، ولكن هذا التأثير انكره المؤرخون الذين كتبوا سيرة حياة « ابن سينا » حينما قالوا ان ابن سينا لم يكن على مذهب ابيه الذي علمه ورباه وهذبه ، وكل هذا حتى ينفوا انتماء ابن سينا الى الاسماعيلية ، فما بالهم يعودون ويقرون

بتأثيرها على الغزالي .. فويل للتاريخ من المؤرخين عندما ينحرفون عن السبيل السوي ويسيرون حسب اهوائهم وغاياتهم لارضاء الملوك والحكام .

عندما اقول ذلك ، وانا بصدد التحدث عن الغزالي ... اضع امامي مبدأ الطلب الى الباحثين والدارسين اعادة النظر في كل ما صدر عن الغزالي ، والتوفر على اخراج الجواهر من الحصى والخطأ من الصواب .. وكل هذا يتم بالتعاون والابتعاد عن عصبيات القرون ، والانصراف الى الواقع والحقيقة ..

ومهما يكن من امر .. فان البحث عن الغزالي يثير الشجون ، لأن هذا العالم السيء الحظ لم يُدرس كما يجب ان يُدرس وخاصة بالنسبة للتصوف ، فتصوف الغزالي لم يظهر عليه الا بعد عودته من دمشق ، ويبدو انه لم يقع الا بعد ان اصابه اليأس من الناس ، وبعد ان تأكد بأن كل شيء في هذا الكون معرض للزوال وخاصة بعد مقتل الوزير فخر الملك .

... والحقيقة لو ان الغزالي كان منتسباً الى الصوفية بعد عودته من دمشق لما كان رضي ان يعود الى مهنة التدريس في المدرسة النظامية بنيسابور ، وهذا ما جعلنا نؤكد ثانية ونكرر القول : بأن صوفية الغزالي لم تكن الا نوعاً من الزهد والتبرم بالناس والبعد عن الحكام الذين ألقوه في اتون من النار وجعلوا حياته في مهب الرياح ويخيم عليها الخوف والقلق .

لقد إطّلعت على بحث كتبه احد عمالقة العلم ، ومع الأسف انه مدعاة للاستغراب يقول :

ان الغزالي استنكر وأدان الذين ارتكبوا جريمة قتل الحلّاج ، وهذا الاستنكار يشكل بنظره انتماء للصوفية ، وكأني به قد جهل بأن اعلان الغزالي عن نقمته على الذين قتلوا الحلاج لم يكن يأتي الا من زاوية انسانية .. وتصديقاً لذلك نرى ايضاً ان « نصير الدين الطوسي » الفيلسوف الاسماعيلي يدافع عن الحلاج في مراسلة منه الى « صدر الدين القونيوي »[٧٤] تتضمن موضوعات عرفانية منها وحدة الوجود ، فنصير الدين قد تطرق في كتابه « اوصاف الاشراف » الى موضوعات المتصوفة وخاصة الحلول والاتحاد والغلو ، وانتقل الى الحلّاج « وابي

يزيد البسطامي »[٧٥] فعلق على مقالتيها : « انا الحق ... وسبحاني ما اعظم شأني » ، وأكد ان اياً منهما لم يدع دعوى الالهية بل دعوى نفي آنيته لاثبات انية غيره وهو المطلق ، فهذا القول والتأييد لا يعني ان الطوسي كان متصوفاً وصاحب مدرسة صوفية جريئة بازائها وطرقها وطقوسها ، وبالرغم من التباعد بين هذه المدرسة ، والمدارس الفكرية فاننا نرى المفكرين الآخرين يشحنون قتله ويأسفون عليه ، وهذا لا يفسر بأن هؤلاء كانوا من مدرسته ، وهكذا بالنسبة للغزالي الذي سبق الطوسي باعلان اسفه واستنكاره لظلم وقع على احد العلماء من حكام مستبدين .

ان الغـزالي كان عالماً ومفكراً كتب العديد من الكتب ، واعتقد بأن أكثرها جاء متناقضاً وغير معبر عن حقيقته ومبادئه وافكاره ... اما كيف كتبها ؟ فيبدو انه حاول فيها ارضاء الحكام والامراء والوزراء ، ومعنى هذا انها جاءت رغماً عنه او لانقاذ نفسه من حياة البؤس والحرمان ، ولم يكن يدري ما وراء هذا الاستسلام وما سوف يعرضه من آلام وقلق وتشرد .

اجل ... من العسير علينا جداً ان نضع الغزالي في قائمة الفلاسفة الاسلاميين ، واعتقد كان بامكانه ان يصل الى هذه المرتبة لولا العوامل التي عرضت له في اول حياته ، فجعلت منه انساناً سجيناً رغماً عنه أو مكبلاً يعيش تحت كنف حكام يتجاذبونه ويستغلونه ويلقون عليه اوامرهم لمحاربة هيئآت او مدارس فكرية مناهضة لهم ، ولكن لم يكن من برنامجه لولاهم الاساءة او التعرض الى احد .

إن حرب الغزالي مع الفلاسفة كما يقول بعض الباحثين لم تكد تنتهي حتى شنّ حرباً اخرى على الباطنية الاسماعيلية دون اي سبب ، ومن المعلوم انه اراد فضح عقائدهم وآرائهم وشنها عليهم حرباً شعواء ، ولم يكن ذلك بمحض ارادته كما قلنا ، بل بحسب ارادة عليا لم يستطع منها فكاكاً ، ولكنه ومع كل اسف لم يخرج منها منتصراً بل كان ذلك عاملاً لظهور المرض الفجائي الذي اصابه في الصميم ... ومن الجدير بالذكر ان الاسماعيلية لم تناقشه او تدخل معه في نقاش في ذلك الحين حتى بزوغ منتصف القرن السادس للهجرة ، عندما انبرى الداعي الاسماعيلي اليمني « علي بن الوليد » الى الرد عليه بكتابه « دافع

الباطل » .

هذا .. ولا بد من القول : بان التكوين الفلسفي لنفسية الغزالي منذ الصغر تثبت انه كان يعاني من الضعف والوهن والتردد وسقوط الارادة والشعور بالتردي ، وعندما اجتمعت هذه المزايا فيه جعلته لا يقوى على مقاومة اوامر الحكام .

الرحلة الأخيرة

الحديث عن الغزالي لا ينتهي ، وقد يطول ويتشعب وتنبثق منه أحاديث ومواضيع ربما ابتعدت عن الاصل والمضمون ، ولكن مهما كان هذا الابتعاد فان فيه اغراءً وتشوقاً .

اجل .. لقد قلنا الكثير عن الغزالي ، ولم نترك شيئاً الا وتحدثنا عنه حتى دخلنا في التاريخ وفلسفة التاريخ ، ووصفنا العصر الذي عاش فيه وما قبله وبعده ، وكل هذا حتى يستطيع القارىء الكريم ان يكوّن معلومات صحيحة وتامة عن هذا المفكر الاسلامي الغامض الذي تناوله العديد من الدارسين والباحثين ببحوثهم ودراساتهم واستنتاجاتهم فجاء اكثرها غير وافي المراد ، وبعيداً كل البعد عن جادة الصواب ولا يستند على اية حجة او منطق .

ان الابحاث عن هذا المفكر قد تجاوزت العد والحصر كما قلنا ... ومن الواضح انها جاءت بلغات عديدة ، ولكنني مع كل اسف لم أر فيها ما يروي الغليل او يقرب البعيد او يزيل المخاوف او يدني من الحقيقة ... مما يجعلني اردد وأذكر :

بأن الغزالي لم يُدرس كما يجب ان يُدرس ، وقد تكون حياته ذات اثر في علمه ، ونحن قد نضلُّ الطريق اذا تخلينا عن دراسة خاصة لديه ، وأهملنا الاخرى ، وخاصة تاريخ العصر الذي عاش فيه . فالغزالي لم يكن فيلسوفاً كما قلنا في كل ما كتبه ، ومن الجهل ان يطلق عليه هذا الاسم ، او يوضع في صف اخوان الصفاء ، او الفارابي ، او ابن سينا ، او ابن رشد او الطوسي ، واننا عندما نتعمد ونتجاهل ونضعه في عداد الفلاسفة فيكون علينا عندئذٍ واجب دراسة اوضاع المدرسة الفلسفية التي ينتمي اليها . فهل هي فيثاغورية او سقراطية او افلاطونية ، او ارسطوية ، او رواقية ، او افلاطونية محدثة .

والحقيقة :

فاننا عندما نمعن النظر ، وندقق ونقابل انتاج الغزالي الفكري بمبادىء هؤلاء الفلاسفة اصحاب تلك المدارس ، فلا نجد اي اثر او ارتباط او علاقة ، فعلم الغزالي يختلف عن منهج الفلسفة وقواعدها ، وهو

في ناحية بينما هي في ناحية اخرى .

قلت :

من الافضل ان نطلق على الغزالي لقب رجل الدين او المرشد او المدرس او العالم « المقيد » الذي يعطي الدروس لطلابه وهو يرتدي العمامة التي تميزه عن العامة وتضعه في عداد الشيوخ والعلماء ، وعندما نعطيه هذه الالقاب فلا نكون قد ظلمناه ، لأنني لم اعثر حتى الآن على دراسة اطمئن اليها او تكون جديرة بالاهتمام او تكشف لنا ظاهره وباطنه على حقيقته ، واعتقد ان كل هذا سببه عدم التوجه الى دراسة عصره التاريخي على حدة بعيداً عن حياته العلمية .. وهكذا فقد كان هناك خلطاً ومزجاً بين الدين والفلسفة وعدم تمييز بين رجل الدين وعالم الكلام والفيلسوف ، وهـذا ما اوقع الشك وأوجد الاضطراب والفراغ .. مضافاً الى ذلك ان تركيب شخصية الغزالي تحتاج ايضاً الى دراسة موضوعية تبدأ من بدء نشوئها ، وتشمل قلقها وضياعها وخوفها وترددها منذ ان خطت في مدارج الحياة الى ان ادركتها الوفاة .. وكل هذا لم يشبعه احد من الباحثين درساً وتحليلاً .

اجـل ... لقد اغفل التاريخ الكثير الكثير من حياة الغزالي ، ووقف موقف المتجاهل من والده واسرته ، ومن المشرفين عليه ، ومن اساتذته ، كما انه لم يفصح لنا عن اسباب ذهابه الى جرجان وتعلقه بأحد دعاة الاسمـاعيلية ، وبعد ذلك بالعالم الاشعري الجويني ، ولم يفصح لنا ايضـاً عن أسبـاب ذهـابه الى بغداد للتدريس في مدرستها ، ورفضه التعليم في مدرسـة نيسابور ، واخيراً تركه بغداد والتحاقه بدمشق ثم بالقدس وبعدها بالاسكندرية واخيراً رجوعه الى بغداد وبعدها الى مسقط رأسه طوس .

ان كل هذا يشكل ناحية مهمة في ادب الغزالي ومؤلفاته التي اشك بأنها تعبر عما في داخله تعبيراً صادقاً مخلصاً ، ويكفي ان نعلم انها وُضعت في ظروف عصيبة ومختلفة ، وفي وقت كان الغزالي لا يملك حريته ولا يستطيع التعبير عن آرائه وعقيدته بصراحة ، فضلاً عن انه كان يعتقد بأن أي رفض أو تراجع عن أوامر العباسيين والسلجوقيين سيؤدي به الى السجن أو الى الموت ، فماذا على هذا الاعزل الفقير ان يفعل ؟

لقد كان عصر الغزالي معقداً ومليئاً بالاحداث ومتلبداً بالغيوم ... انه

القــرن الرابــع للهجــرة .. قرن الدعــوات الدينية والعقائد التي كانت تتصـارع على الساحة ، وابطالها مجموعة من الملوك والخلفاء والامراء .

(٦٤) « الاشعرية » : نشأت مدرسة الاشعرية في القرن الرابع للهجرة ، وقد قام بتأسيسها تلامذة الاشعري ، وقد ظلت هذه الحركة عدة قرون مهيمنة على الدين الاسلامي السني .

توسعت مدرستهم حتى اصبحت الناطق باسم السُّنة في القسم الاكبر من العالم الاسلامي ، وفي القرن السادس للهجرة واجهت المصاعب الكبيرة فتوقف نشاطها وقد حاربها « البويهيون » في العراق وفارس ، وذلك عندما كانوا اسياد السلطة في الدولة العباسية ولكنها ازدهرت عندما جاء السلجوقيون وخاصة الوزير نظام الملك المقتول سنة ٤٨٥ هـ . الذي اسس مدرستين في بغداد ونيسابور حيث كانت تدرس فيها الاشعرية التي تحوّلت الى مذهب رسمي للدولة .

رجال الاشعرية هم : الباقلاني ، الاسفرائيني ، السمعاني ، الغزالي ، ابن تومرت ، الشهرستاني ، الرازي فخر الدين ، الجرجاني ، الجويني ، السنوسي ، ويعتبر « ابو الحسن الاشعري » هو المؤسس لهذه الفرقة ، وكان من تلاميذ « ابو علي الجبائي » المعتزلي ، فافترق عنه واسس فرقة جديدة عرفت باسمه وهي « الاشعرية التي اعتمدت مبدأ الاقيسة المنظمة والوضوح في بعض القضايا وطرحها لجميع الناس ، وتتلخص نظرياتهم في مبدأ التوفيق بين مختلف الآراء .. ومن اقوالهم ، عن « صفات الله » وهي معانٍ ازلية قائمة بذات الله ولكنها قالت بصفات جسمية ، فلله وجه ويد وعرش غير ان البشر لا يعرفون كيف هي هذه الصفات كما لا يمكن تشبيهها بما عند البشر ، وقالوا : برؤية الله لا على ان له مكاناً وصورة وجسم ، وانما تتم الرؤية بمعرفة وادراك عن طريق العين ، ولكن الابصار لا يتم بها بما يتم به عند البشر . ويقولون : بالعدل اي عدل الله ونزاهته عن الشر والظلم ، فهو الذي يعفو عمن يشاء بمحض عدله وحكمته ، وتفرعت من ذلك مسألة الحسن والقبح العقليين التي ناقشها المعتزلة فهي تقول : ان العقل لا يستطيع ان يدرك الحسن و القبح ولكنه لا يلتزم بذلك الا اذا فرضه الدين ، وهم يفضلون الدين على العقل ، لان الدين هو الأصل وقالوا : بأن افعال البشر اضطرارية وارادية ، فالاضطرارية لا يحاسب عليها المرء لأنها غير ارادية ، اما الارادية ومنها الواجبات الدينية والفرائض الشرعية فيحاسب عليها عندما يكون هناك تقصير ، وعادوا فقالوا : ان الافعال كلها لله في الاصل ، كما قالوا : بالجوهر الفرد ، وحدوث الاجسام من الجواهر بقدرة الله وبفنائها عند فناء هذه الجواهر .

(٦٥) « القدرية » : جماعة يجمدون القدر ويقولون : ان كل عبد من عباد الله خالق لفعله فتمكن من عمله او تركه بارادته ويعاكسهم في ذلك « الجبرية » .

(٦٦) هذا الوزير قتل اغتيالاً مثل والده نظام الملك ، والتاريخ يتهم الاسماعيلية باغتياله .

(٦٧) « أحمد الغزالي » توفي سنة ٥٢٠ في قزوين . له كتاب « سوانح العشاق » وهذا الكتاب يتألف من مقطوعات عديدة مستقلة ، وقد كتب باللغة الفارسية ثم ناقشها . وهذا الكتاب نشره المستشرق الالماني « ريتر » .

(٦٨) هو : محي الدين محمد بن علي الحاتمي الطائي توفي سنة ٦٣٨ هـ . ولد في مرسية – الاندلس وتوفي في سفح جبل قاسيون بدمشق . كان ظاهرياً في العبادات وباطنياً في الاعتقاد . لقبه الشيخ الاكبر .. اقام ثلاثين عاماً في اشبيلية ثم رحل الى الشرق . أهم مؤلفاته « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم » و « ترجمان الاشواق » و « محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار » و « جامع الاحكام » و « تفسير القرآن » .

(٦٩) هو : ابو عبد الله الحسين بن منصور الحلاّج .. جده زرادشتي ، ولد في تور جنوبي غربي ايران سنة ٢٤٤ هـ . واعدم في بغداد سنة ٣٠٩ هـ .. بعد ان بقي في السجن ثمانية أعوام . كانت له طريقة بالصوفية .. اتهم بالزندقة والقول في الحلول ، لم يبق من مؤلفاته سوى كتاب « الطواسين » تحقيق المستشرق لويس ماسينيون .

(٧٠) هو : عمر بن علي بن الفارض [١١٨١ ـ ١٢٣٥ م] . ولد في القاهرة وتوفي فيها . من المفكرين المتصوفين ومن أرقّ الشعراء عاش متنسكاً . له ديوان شعر اشعر ما فيه « تائيته » ثم « الميمية » في الخمرة الروحية .

(٧١) هو : شهاب الدين يحي بن حبش [٥٤٩ ـ ٥٨٧ هـ] . متصوف اشراقي كبير ، ولد بسهرورد (ايران) ودرس في مراغة ، اتهم بالخروج على الدين . قتل في قلعة حلب بأمر من صلاح الدين الايوبي .. له « حكمة الاشراق » و « هياكل النور » .

(٧٢) « ابن خلدون » ـ عبد الرحمن [١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م] ولد في تونس . مؤرخ كبير ورجل سياسة . درس الفلسفة والمنطق والفقه والتاريخ . سافر الى الاندلس واصبح سفيراً بعد ذلك .. رحل الى مصر ودرس في الازهر ، وتولى قضاء المالكية حتى وفاته .. قابل تيمورلنك وطلب منه فك الحصار عن دمشق ولكنه اخفق . يعتبر أكثر المؤرخين دقة وعقلاً .. اشهر كتبه « العبر » .. والمقدمة .

(٧٣) هو : ابو علي الفضل بن علي « الفارميدي » الصوفي .

(٧٤) هو : محمد بن اسحق صدر الدين الرومي .. توفي سنة ٦٧٣ هـ . صوفي مرموق .. ولد بقونية .. اخذ عنه الشيخ الاكبر ابن عربي . جرت وبينه وبين نصير الدين الطوسي مراسلات .. له كتاب « اعجاز البيان في تفسير القرآن » .

(٧٥) هو ابو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشاه البسطامي . توفي سنة ٢٣٤ هـ . صوفي شهير .. جده كان زرادشتياً ثم اعتنق الاسلام .. كان يقول بمذهب الفناء . اشهر كتبه « العقيدة والشريعة في الاسلام » .

المصادر العربية

ازهار الجنان ـ قيس الداديخي ـ [مخطوط]
فصول واخبار ـ نور الدين احمد [مخطوط]
ابن ابي الفضائل ـ كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة . تحقيق محمد زاهد الكوثري ـ القاهرة ١٩٥٥ .
ابن سينا، ابو علي ـ الاشارات والتنبيهات . دار المعارف بمصر ١٩٥٧
ابن عربي محي الدين ـ الفتوحات المكية ـ القاهرة ١٢٩٣ هـ .
ابن عساكر الحافظ ـ تبيين كذب المفتري فيما نسب الى الامام الاشعري . دمشق ١٣٤٧ هـ .
ابن الفارض عمر ـ الديوان ، بيروت ١٣٨٢ هـ .
ابو الفداء ـ المختصر في اخبار البشر . اسطنبول ١٣٨٦ هـ .
اخوان الصفا ـ الرسائل . القاهرة ١٩٢٨
البسطامي ابو يزيد ـ المعراج [ملحق رسالة القشيري تحقيق الدكتور علي حسن عبد القادر] .
البصري عامر بن عامر ـ التائية [ضمن اربع رسائل اسماعيلية تحقيق الدكتور عارف تامر] ـ سورية ١٩٥٢
الجويني امام الحرمين ـ الارشاد ـ نشرة لوسياني باريس ١٩٣٨ .
الحلاج الحسين بن منصور ـ الديوان ـ ماسينيون ـ باريس ١٩٥٥ ، والشيبي بغداد ١٩٧٤ ـ الطواسين تحقيق ماسينيون باريس ١٩١٣ .
الرومي جلال الدين ـ شمس تبريزي ـ تحقيق نيكلسون ـ كمبردج ١٨٩٨ .
السهروردي المقتول ـ اصوات اجنحة جبرائيل ، نشرة كوربان وكراوس ضمن شخصيات قلقة في الاسلام للدكتور بدوي القاهرة ١٩٦٤ .
الشهرستاني ابو الفتح ـ الملل والنحل ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ـ تحقيق محمد سيد كيلاني القاهرة ١٣٨١ .
الغزالي ابو حامد ـ احياء علوم الدين ، تهافت الفلاسفة ، فضائح الباطنية ، مقاصد الفلاسفة ، المنقذ من الضلال ..
الفارابي ابو النصر ـ اهل المدينة الفاضلة بيروت ١٩٥٩ .
الالوسي ، د . حسام ـ حوار بين الفلاسفة والمتكلمين بغداد ١٩٦٧ .
ابو بكر علي ـ الغزالي المجدد ـ القاهرة ١٩٦٢
امين حسين ـ الغزالي ـ بغداد ١٩٦٣ .
بدوي . د . عبد الرحمن ـ الغزالي ومصادره اليونانية ... مؤلفات الغزالي القاهرة ١٩٦١ .
البقري ، د . عبد الدائم ابو العطاء ـ اعترافات الغزالي القاهرة ١٩٤٣ .
جار الله حسن ـ المعتزلة القاهرة ١٩٤٧ .
دنيا . د . سليمان ـ الحقيقة في نظر الغزالي ١٩٤٧ .
سرور طه عبد الباقي ـ الغزالي ١٩٤٥ .
شيخ الارض تيسير ـ الغزالي ـ بيروت ١٩٦٠ .
فروخ د . عمر ـ رجوع الغزالي الى اليقين .
كارادي فو البارون ـ الغزالي ، ترجمة عادل زعيتر القاهرة ١٩٥٨ .
كوربان هنري ـ تاريخ الفلسفة الاسلامية ١٩٦٦ بيروت .

مبارك . د . زكي ـ الاخلاق عند الغزالي القاهرة ١٩٢٥ .
محمود د . زكي نجيب ـ العقيدة التائية للامام الغزالي .
مدكور د . ابراهيم بيومي ـ في الفلسفة الاسلامية القاهرة ١٩٤٧ .

المراجع الأجنبية

Smith, M. ALGAZALI on the practice of the presence of God, in Muslim world 23 - 1933
Smith - AlGazali the Mystic London 1944
Veux, Carrade, Ghazali Paris 1902
Encyclopaedia Britannica; Art AlGhazali
Abu-Rida, M.A, Al-Ghazali und Seine widerlegang der philosophie - Madrid 1952
Faris, N, A, The Ihya-ulam al Dine of AlGazali in: pro. Amer Philos. Society 81-1939
Jabre -F- la Biographie et L'ruvre de Ghazali -Beyrouth 1958
Macdonald -D-B, The life of al-Ghazali...etc in JAOS, Vol, XX 1899
Umaruddin, M: AlGhazali's Conception of love with special reference to the love of God, in, the memorial Book of AlGhazali Cairo 1962
Wensink, la penseé de Ghazali - Paris 1940

الغزالي

بين الفلسفة والدين

■ دراسة جديدة عن الغزالي، تحاول إزاحة الستار عن أشياء كثيرة غير معروفة عن هذه الشخصية الفلسفية التاريخية القلقة والغامضة، التي حامت حولها الظنون، وعجزت عن إدراك كنهها وسبر أغوارها أقلام الدارسين والباحثين.

والدكتور عارف تامر، الكاتب والمؤرخ الإسلامي المعروف، يحاول ان يعود في هذا الكتاب إلى التاريخ لإعطاء صورة واضحة عن العصر الذي عاش فيه الغزالي وما قبله وما بعده، مع بيان عن الأوضاع السياسية السائدة وتقلباتها، والحالة الفكرية المسيطرة على تلك المجتمعات والنوادي العلمية، بل كل ما له ارتباط بحياة الغزالي الفكرية والتاريخية والأدوار التي مثلها على مسرح الحياة.

ويعتمد المؤلف في كتابه عن الغزالي على المصادر التاريخية التقليدية، من عربية وأجنبية، لكنه يقيِّمها في العمق، ويدحض الكثير مما ورد فيها، وخاصة ما يخرج عن دائرة الحقيقة والعقل. ولعل هذا الكتاب هو من أهم ما كتب عن الغزالي حتى الآن.


1869844726